الجامعة الأميركية في بيروت

البعد الاجتماعي- التاريخي
في خماسية "مدن الملح" الروائية لعبد الرحمن منيف

إعداد
زياد حسين ماجد

رسالة
مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة أستاذ في الآداب
(الماجستير)
الى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى
في كلية الآداب والعلوم
في الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت، لبنان
أيار ١٩٩٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THE SOCIO-HISTORICAL DIMENSIONS OF ABDEL RAHMAN MUNIF'S *CITIES OF SALTS*

by
ZIAD HUSSEIN MAJED

A thesis
submitted in partial fulfillment of the requirements
for the degree of Master of Arts
to the Department of Arabic and Near East Languages
of the Faculty of Arts and Sciences
at the American University of Beirut

Beirut, Lebanon
May 1999

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THE SOCIO-HISTORICAL DIMEMSION OF ABDEL RAHMAN MUNIF'S "CITIES OF SALT"

by
ZIAD HUSSEIN MAJED

Approved by:

Dr. Nadim Naimy, Professor — Advisor
Arabic

Dr. Saleh S. Agha, Assistant Professor — Member of Committee
Arabic

Dr. Amina Ghosn, Instructor — Member of Committee
Arabic

Date of thesis defense: May 31, 1999

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THESIS RELEASE FORM

I, Ziad Hussein Majed

☑ authorise the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

☐ do not authorise the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals for a period of two years starting with the date of the thesis defense.

Signature

10 / 6 / 99
Date

مستخلص عن أطروحة

زياد حسين ماجد   لماجستير في الآداب
الاختصاص: عربي

العنوان: البعد الاجتماعي-التاريخي لخماسية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف

وثّق الروائي السعودي عبد الرحمن منيف في خماسيته، "مدن الملح"، لمرحلة ظهور النفط في الجزيرة العربية وما رافقها من تحولات اجتماعية وسياسية وقيمية طالت أوجه الحياة العامة جميعها.

ورغم أن الصحراء والحدث النفطي الذي اجتاحها لعبا دور البطولة في "مدن الملح"، إلا أن الشخصيات ظلت، في ردات فعلها وتعاطيها مع ما جرى في محيطها، المفتاح الأساس لفهم الخماسية وتبيان توثيقها الاجتماعي- التاريخي.

توزّعت شخصيات "مدن الملح" على فئات ثلاث: فئة الصحراويين الذين انقسموا جراء الوصول الأميركي المنقّب عن النفط بين رافض يحاول المقاومة، ومتواطئ يسعى للاستفادة، وسلطة تتحوّل وفق المتغيرات؛ وفئة الوافدين الى الصحراء من محيطها العربي بحثاً عن ثروة ومجد وأدوار سياسية لم تكن لتتوفر لهم في بلادهم الأصلية؛ وفئة الوافدين الى الصحراء من خارج محيطها العربي، الذين دخلوها متواضعين للعيش والارتزاق أو فاتحين لرسم الحدود واكتشاف النفط والسيطرة عليه.

وقد تفاعلت هذه الشخصيات مع الرقعة الجغرافية حيث تلاقت والحدث النفطي وما نجم عنه من معطيات، لتنتج جدليات صراع أشبه ما تكون بصراع البحر والصحراء. فالبحر، بما يمثله من حيوية وحركية وروح مغامرة لا تنضب، اجتاح الصحراء الثابتة حيث الزمن يتوقف، وسيطر عليها من دون أن يغيّرها. فنتج عن اجتياحه وسيطرته قيام بنى اجتماعية وسياسية وثقافية هجينة لا تشبه إلا نفسها.

وعمد عبد الرحمن منيف الى تأطير الشخصيات وتفاعلاتها وجدلية البحر والصحراء والمتمخض عنها في قوالب لغوية وبنى فنية ليقدم شهادته الأدبية من ناحية، وتأريخه في صيغتيه المضادة (حيث التاريخ يروى من منظور المهزومين والناس العاديين) والموازية (حيث التاريخ يتابع سيرة المنتصرين دون اعتماد لسانهم) من ناحية ثانية.

وبذلك، أدت "مدن الملح" وظيفتيها: الأدبية الروائية، والاجتماعية-التاريخية، لتعلن أنها شهادة فنية سجلت ما دار منذ مطالع القرن العشرين وحتى ثمانيناته في الجزية العربية.

AN ABSTRACT OF THE THESIS

Ziad Hussein Majed for Masters of Arts
Major: Arabic

Title: The Socio-Historical Dimensions of Abdel Rahman Munif's "Cities of Salt"

Although crafted in the language of novel, Abdel-Rahman Munif's "Cities of Salt" remains the most poignant transcript of social-history of the impact of the discovery of oil and the ensuing transformations on the Arab peninsula.

At the frontstage of the work, and throughout, Munif presents the 'desert' and the 'oil', event as the main protagonists of the work, whereas the characters are keys to uncovering and understanding their interaction with both the desert and oil, as well as being the site of inscription of the socio-historical transcript of the transformation.

In the vein of the socio-historical transcript, the characters of "Cities of Salt" can be grouped under three main categories. The first group comprises the original inhabitants of the desert, whose social unity became irreversibly disrupted with the arrival of oil-exploiting Americans. The second group comprises those who came to the desert from the wider Arab realm, seeking to find glory or power as their political ambitions in their own societies were thwarted. The third group comprises those who came to the desert from beyond the Arab realm, either looking for means to make a modest living, or to assume a pivotal role of power, and change the future of the oil-enriched desert land.

All three groups of characters interact and struggle with the desert, and the advent of oil, in a pattern of dialectics very similar to the dialectics of interaction between the sea and the desert. The sea, ever-changing in form and with time, invading the desert, never-changing and stable where time does not move. The outcomes of this invasion are disruptions and alienations where the social, political and cultural structures resemble nothing anymore but themselves.

On the one hand, Munif has woven in literary form, staging characters, their interactions, the dialectics of the sea and the desert to transcribe a social history of that period, and provide the hidden, counter narrative to the official one. On the other hand, he also provides us with the 'parallel history' that stages and narrates the victorious without assuming totally their 'eyes'. In this perspective, "Cities of Salt" successfully fulfills a dual role, that of literary oeuvre, and that of socio-historical transcript.

التصدير

أحاول في هذه الأطروحة قراءة خماســية عبد الرحمن منيف "مدن الملح" من خلال تحليل مواقف شخصياتها وأشكال تعبير الشخصيات على اختلاف مواقفها عن الأزمات والجدليات الإنسانية والسياسية التي ولّدها ظهور النفط في الجزيرة العربية، وذلك بهدف الوقوف على البعد الاجتماعي-التاريخي للخماسية.

وسأعرض بداية لحياة منيف وأعماله، ولمضمون "مدن الملح" وأسباب اعتماد شخصياتها منطلقاً للوقوف على توثيقها الاجتماعي-التاريخي.

وسأخوض بعدها في باقي فصول الأطروحة، وهي خمسة:

- فصل أول يرصد كيف تكتلت الشخصيات التي أسميتها "صحراوية"، أي تلك التي كانت في أصلها من الصحراء، في مواجهة الحدث النفطي.
- فصل ثان يتابع مســار الشخصيات الوافدة الى الصحراء من المحيط العربي ومآلها.
- فصل ثالث يعالج أشكال اقتحام الشخصيــات القادمة من خارج المحيط العربي، أو من خلف البحر، للصحراء وللحدث النفطي.
- فصل رابع يصوغ جدلية الصحراء والبحر كما جسّدتها "مدن الملح" لجهة ما يعكسه كل من طرفي هذه الجدلية من مفاهيم وقيم.
- فصل خامس يدرس العناصر الفنية للخماسية ويبحث في مقوماتها الروائية وارتباط هذه المقومات بالبعد الاجتماعي-التاريخي للخماسية.

أما الخلاصة، فستكون مساءلة لمدى نجاح العمل التوثيقي ضمن الشكل الروائي الذي قدمته "مدن الملح".

إعتمدت بشكل أساسي لإنجاز هذا البحث على قراءتي لنص الخماسية الروائية، وعدت الى جميع أعمال عبد الرحمن منيف الروائية والثقافية والسياسية، واطلعت على مقابلات أجريت معه عرض فيها لسيرته ولنظرته الى قضية النفط و"أنظمته السياسية". كما قرأت معظم الدراسات التي تناولته وأفدت من بعض ما فيها من آراء نقدية وتحليلية، ولو في غير ما أردت الذهاب إليه في هذه الأطروحة.

المحتويات

الفصل الأول

مقدمة

سأتناول في هذه المقدمة من سيرة الروائي عبد الرحمن منيف ما يضيء بعض جوانب كتابته "مدن الملح". فعبد الرحمن منيف في خماسيته لم يتعـامل مع موضوع عارض في حياته، أو خارجي عن كيانه، بل هو اشـتغل في قضية كرّس لها مراحل من عمره ودراساته. ثم سأعرض بإيجاز للخماسية في سياقها العام، ولأسباب انتقائي شخصياتها منطلقاً لبحثي.

١٠١ عبد الرحمن منيف: من الالتزام السياسي الى الالتزام الروائي (١)

ولد عبد الرحمن منيف من والد سعودي (من نجد) وأم عراقية في عمّان في الأردن عام ١٩٣٣. والده كان تاجراً يرافق القوافل في رحلاتها، والتقى والدته في إحدى هذه الرحلات، فقررا الزواج والاستقرار في عمـان. وبعيد ولادة عبد الرحمن، توفي والده، وبقيت العائلة في عمان، حيث أنهى عبد الرحمن دراسته الثانوية، ثم انتقل الى العراق والتحق بكلية الحقوق في بغداد عام ١٩٥٢. وخاض – الى دراسته – غمار النشاط السـياسي، فانتسب الى حزب البعث العربي الاشتراكي أواخر العام ١٩٥٣.

وبعد إبرام "حلف بغداد" عام ١٩٥٥، طرد منيف مع عدد كبير من الطـلاب العرب المعادين لحلف بغداد من العراق، فتوجّه الى القـاهرة حيث أكمل دراسته في القانون وانجذب الى المواضيع الاقتصادية.

وكوّن منيف في تلك المرحلة "العراقية–المصرية" ثقافة خارج الأطر السياسية والحقوقية، إذ كان يرتاد المسـرح، ويلتقي المثقفين المصريين أمثال رجاء النقاش وأحمد عبد المعطي حجازي وأبو المعطي أبو النجا وسليمان فياض (٢)، ويقرأ الفن الروائي، وعلى نحو خاص روايات جرجي زيدان التاريخية وروايات نجيب محفوظ الاجتماعية الواقعية.

وفي العام ١٩٥٨ سافر الى يوغوسلافيا وتابع الدراسة في جامعة بلغراد، وحاز عام ١٩٦١ على دكتوراه في العلوم الاقتصادية، متخصصاً في اقتصاديات النفط. وتوجّه إثر ذلك الى سورية حيث عمل خبيراً في الشركة السورية للنفط.

في العام ١٩٦٢ أنهى منيف علاقته التنظيمية بحزب البعث لخلافات في وجهات النظر تفجرت خلال انعقـاد مؤتمر الحزب العام المعروف "بمؤتمر حمص"، إذ كان منيف من اليساريين الماركسيين الذين انفصل بعضهم عن الحزب.

وفي العام ١٩٦٣، عبّرت السلطات السعودية عن انزعاجها من أنشطته والتزاماته السياسية، ثم أقدمت على نزع جنسيته السعودية.

وفي العام ١٩٦٨، أختلف منيف مرة أخرى مع "محيطه"، وكان الخلاف هذه المرة مع القيمين على الشـركة السـورية للنفط بشأن سياساتها الإدارية وخياراتها العملية، فانعكس ذلك على أدائه فيها وموقعه. إذ تم نقله، في ما يشبه العقاب أو التهميش، الى مديرية التخطيط في الشركة حيث لم تكن له مهام محددة يمكن أن يمارسها! ولجأ الى المطالعة خلال الدوام لقتل الوقت، وانجذب الى القراءات الأدبية بخاصة، فاكتشـف عالم الرواية الروسية، وفتن بدوستويفسكي ومناخات رواياته الاجتماعية وعوالم شخصيات تلك الروايات النفسية. ثم وجد نفسه يحاول الكتابة. كان يريد التعبير عن أفكاره السياسية وتطلعاته الإنسانية وتجريب القوالب الأدبية التي اكتشفها خلال مطالعاته. وكان هاجسه البقاء على تمـاس مع جميع الذين التقاهم خلال تجربته السياسية، والتواصل مع "المواطنين" الذين حاول مخاطبتهم واستمالتهم طيلة سنواته الحزبية.

وفي العام ١٩٦٩، خاض منيف تجربته الروائية الأولى، وأسماها "الأشجار واغتيال مرزوق"، وفيها أصداء من سيرته الذاتية، وهموم كثيرة تمتد من جواز السفر الى السجن والارتحال. فبطل الرواية، منصور عبد السلام، أستاذ جامعي يفصل من عمله لالتزامه السياسي ويعاني الاضطهاد والتهميش وتسحب منه أوراقه الثبوتية، فينتهي به الأمر جاهداً للحصول على جواز سفر يمكنه من هجر وطنه والبحث عن عمل جديد خارجه.

غير أن منيفاً لم يجد ناشراً للرواية، فقد فضل معظم الناشرين تجنبها نظراً لما فيها من إشارات واضحة الى قمعية الأنظمة العربية وسلوكياتها تجاه المثقفين. واستمر الأمر على هذه الحال حتى العام ١٩٧٣ حين انتقل منيف بعد زواجه من سوريا الى لبنان للعمل

في بيروت محرراً في مجلة "البلاغ" اليسارية، واتفق مع "المؤسسة العربية للدراسات والنشر" على نشر روايته.

وخلال إقامته في بيروت، كتب منيف روايتين نشرتهما أيضاً "المؤسسة العربية للدراسات والنشر" (التي تولت نشر جميع رواياته من بعد).

الرواية الأولى صدرت عام ١٩٧٤ تحت عنوان "قصة حــب مجوسية"، وأراد من خلالها دحض مقولة أن الكاتب الثوري والملتزم لا يتناول قصص الحب والضعف الإنساني والرغبات الجامحة لأنها تبعد الناس عن نضالهم وقضاياهم وصراعهم الطبقي. فكتب عن رجل يشكي ألمه وضياعه الناجمين عن حبه وعلاقاته المرتبكة بنساء التقى بهن في نفس المرحلة من حياته. وأراد منيف أن يقول إن في الإنسان جوانب لا ينبغي قمعها تحت أية ذريعة، مهما كانت نبيلة.

أما الرواية الثانية، "شرق المتوسط"، فقد نشـــرت عام ١٩٧٥ وتطرّقت الى تجربة السجن السياسي في المنطقة الجغرافية التي أراد منيف تسميتها "شرق المتوسط"، في إشارة الى المشرق العربي. وكان بطلها، رجب اسماعيل، مناضلاً سياسياً قضى سنوات طويلة من عمره في السجون تحت تعذيب جلادي السلطة، قبل أن يدفع حياته ثمناً لمواقفه والتزامه السياسي. و"شرق المتوسط" من أولى روايات "أدب السجون" العربي، وهي ســـلطت الضوء على قضية غير متداولة كثيراً، وهي قضية معاناة سجناء الرأي في معتقلات الأنظمة العربية.

وكتب عبد الرحمن منيف في تلك الفترة أيضاً دراسة تحت عنوان "البترول العربي: مشاركة أو التأميم"، عرض فيها لواقع إدارة النفط العربي، وطرح أفكاراً حول سبل الإفادة من النفط لتنمية شعوب المنطقة واقتصاداتها.

ومع اندلاع الحرب الأهلية اللبنـــانية عام ١٩٧٥، غادر منيف الى العراق حيث تولى في بغداد تحرير مجلة "النفط والتنمية"، وحصل على جواز سفر عراقي (وكنا أشرنا في مستهل هذه المقدمة الى أن والدته عراقية، الأمر الذي سهّل عليه الأمر). ونشر هناك، عام ١٩٧٦، دراسة ثانية حول قضايا النفط عنوانها "تأميم البترول العربي"، دعا فيها الى الاســـتفادة من النفط من خلال تأميمه وتعميم خيره على الشعوب العربية.

وعلى الصعيد الروائي، شهدت تلك الحقبة إنتاجاً غزيراً بدأ مع روايته "حين تركنا الجسر" التي صدرت في بيروت عام ١٩٧٦. ومحور الرواية شـــخصية زكي النداوي،

المثقف الذي يناجي نفسه وكلبه على امتداد الرواية حول قضايا وجودية عامة أو ثقافية سياسية مستمدة من البيئة العربية المحلية وما فيها من هزيمة وخيبة ويأس.

ثم صدرت روايته "النهايات" عام ١٩٧٧ في بيروت أيضاً، وفيها لامس منيف عالم الصحراء لأول مرة، إذ أدار أحداث الرواية خلال رحلات صيد صحراوية يقودها صياد مميز أسمه عساف، وتظهر فيـــها خصوصيات الصحراء الجغرافية والبيئية فضلاً عن خصوصيات أهلها والعابرين عبر رمالها.

وعام ١٩٧٩ صدرت لمنيف في بيروت رواية "سباق المسافات الطويلة"، وفيها أحداث تدور في مناخات مخابراتية ذات صلة بعالم النفط وأنظمة دوله السياسية. إذ إن بطلها بيتر، الموظف السابق في إحدى شركات النفط، مكلف من جهاز الاستخبارات البريطانية العمل في بيروت من أجل مراقبة بعض الشخصيات والسفارات والأجهزة الاستخباراتية الأخرى. ومن خلال يوميات بيتر ومذكراته، تخوض الرواية في الأبعـــاد السياسية والاجتماعية للأحداث التي كانت تدور في المنطقة العربية.

وخلال إقامته في العراق أيضاً، خاض منيف تجربة روائية متميزة. فكتب والروائي الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا رواية مشتركة أسمياها "عالم بلا خرائط"، ونشراها عام ١٩٨٢ في بيروت، محاولين عن طريقها بناء رواية ضمن توجهين وأسلوبين يسعيان الى التكامل من خلال قضية واحدة يعالجانها، هي قضية تاريخ مدينة متخيلة اسمها عمورية.

وفي العـــام ١٩٨١، قرر عبد الرحمن منيف الاستقالة من عمله الوظيفي والتفرغ للكتابة الروائية، إذ رأى فيها احتمالات إبداع وتعبير حر عن جميع مواقفه وآرائه. فغادر العراق مرة جديدة متوجهاً الى فرنســـا حيث قرر الإقامة. وكان خياره مرتبطاً على الأرجح بما تمثله فرنسا من مناخ حرية وإمكانات اطّلاع ثقافي وتمـــاس مع أرجاء العالم المختلفة. كما أن فيها عدداً كبيراً من المثقفين العرب أصدقاء منيف وأترابه الذين اختاروا الإقامة فيها أو نفوا من بلادهم فالتجأوا إليها.

وفي فرنسا، بدأت معالم "مدن الملح" تتبلور في مخيلته. كان يريد دمج عالمي الصحراء والنفط اللذين تطرق إليهمـــا سابقاً، والبحث فيهما عن العلاقات والقضايا والجدليات التي ترتبت على التقائهما. وكان يريد أن يقول إن النفط المفترض استخدامه

ســـلاحاً في يد الشعوب التي تملكه لتنمية ذاتها وتطوير حياتها والالتزام بقضايا منطقتها تحوّل كابوساً سياسياً واقتصادياً وقيمياً عليها وعلى محيطها.

وبدأت أجزاء "مدن الملح" بالظهور في بيروت ابتداء من العام ١٩٨٤ حين ظهر جزؤها الأول "التيه". وبعد عام ظهر الجزء الثاني "الأخدود".

وفي العـــام ١٩٨٦ حصل منيف على جواز سفر يمني جنوبي نتيجة صلة أمنها له أحد أصدقائه اللبنانيين، وقرر العودة الى سوريا حيث لا يزال يقيم. فسوريا وطن زوجته، والدولة السورية منحته جواز سفر جديد، وفيها استطاع الاستقرار والعمل في فترات سابقة. كما أنها قريبة من بيروت حيث اعتاد النشر.

وإثر هذه العودة، ظهرت تباعاً باقي أجزاء خماسيته "تقاسيم الليل والنهار" و"المنبت" و"بادية الظلمات" عام ١٩٨٩.

واستمرت مســـيرته الروائية (البيروتية الصدور) بعد "مدن الملح"، فكتب "الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى" ونشـــرها عام ١٩٩١، وفيها استعادة لروايته "شرق المتوسط" حول تجربة السجناء السياسيين، مع تركيز على الأبعاد النفسية للشخصيات وعودة الى تفاصيل الســـجن التي تفادى بعضها في الرواية الأولى لضمان نشرها. وبطل "الآن هنا"، عادل الخالدي، سجين ســـياسي آخر يخرج للعلاج في مســـتشفى في براغ عاصمة تشـــيكوسلوفاكيا بعد إصابته بأمراض نتيجة التعذيب وفنون الضرب التي تعرض لها، ويروي رحلته الطويلة داخل السجون والأسباب المفضية إليها.

ومنذ ذلك الوقت، لم تظهر لعبد الرحمن منيف روايات جديدة، غير أنه يعمل حالياً على كتابة رواية حول العراق في مرحلة داود باشا النهضوية أواسط القرن التاسع عشر، المرحلة نفسها التي كان فيها محمد علي يحاول بناء دولة قوية و"عصرية" في مصر. وتقدم الرواية توثيقاً لأحداث تلك المرحلة الاجتماعية والإنسانية في العراق بقالب فني (٣).

وفي المقـــابل، لم يتوقف إنتاج منيف الفكري. فقد صدرت له مجموعة كتب تراوح بين السياسي والثقافي والأدبي والنقدي الفني من ناحية، والذكريات الشخصية مع مدينة الطفولة والأصدقاء الراحلين من ناحية ثانية.

أول هذه الكتب كان "الديمقراطية أولاً.. الديمقراطية دائماً" الذي نشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت عام ١٩٩٢، وفيه مقالات سياسية كتبها في قضايا

العالم العربي السياسية والاقتصادية والنفطية وأنظمة الحكم فيه، وتعبير عن أن الديمقراطية هي منطلق التنمية والتطور والاستقلال الحقيقي.

وثاني هذه الكتب كان "سيرة مدينة"، وهو تتبع لسيرة عمان حيث نشأ منيف في الأربعينات. وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٤ عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر" في بيروت.

وفي العام ١٩٩٦ صدر لمنيف في دمشق مجلد بعنوان "مروان قصاب باشي، رحلة الحياة والفن"، وهو يتضمن سيرة شخصية وثقافية وفنية للفنان التشـكيلي السوري المقيم في ألمانيا مروان قصابي باشا، مرفقة بعدد من لوحاته.

وإثر وفاة صديقه المغربي البـاهي محمد، عكف منيف على كتابة سيرة للراحل عنوانها "عروة الزمان الباهي". وقد صدرت عن "المركز الثقافي العربي" في بيروت عام ١٩٩٧.

وأتبعها منيف بكتابين عن الدار نفسه عام ١٩٩٨. الأول، "لوعة الغيـاب"، فيه مجموعة مقالات ودراسات في أعمـال راحلين أهديت إليهم، وهم سعد الله ونوس وجبرا ابراهيم جبرا والجواهري وغائب طعمة فرمان ونزار قباني وجميل حتمل والبـاهي محمد وإميل حبيبي وحليم بركات وإيفو أندريتش وغارسيا لوركا ويوسف فتح الله.

والثاني، "بين الثقافة والسياسة"، يجمع مقالات وأوراق كتبها منيف حول قضايا ثقافية وسياسية. ويتطرق فيها الى مقومات النهضة العربية وقيام الثقافة الوطنية ودور المثقف ودور الدين في المجتمع وواقع المرأة وعلاقة الإعلام بالثقافة وأسئلة الرواية وسقوط الإتحاد السوفياتي، كل ذلك فضلاً عن "بعض آثار صدمة النفط".

والملاحظ، الى غزارة كتابات منيف وتنوع مضامينها ومواضيعها، أن قضية النفط لا تغيب عنها، مما يشير الى التصاقه بها وهجسه بآثارها وانعكاساتها.

وتقديراً لإنتاجه الروائي منحته "ندوة الرواية العربية" التي نظّمها المجلس الأعلى للثقافة في مصر في شباط ١٩٩٨ جائزة "الإبداع الروائي العربي". وقد جاء في نص "براءة الجائزة" أن اللجنة منحته جائزتها لتكريسـه أعماله الفنية لخدمة التزامه الإنساني وقضايا مجتمعه...

يعبّر عبد الرحمن منيف في مختلف أعمـاله الروائية عن هواجسه السياسية والثقافية المستقاة من الواقع المسيطر على أكثر المجتمعات العربية.

وتتّخذ هواجسه طابعاً إنســانياً عاماً لكونها تتناول قضايا التقدم والحرية والديمقراطية والعدالة في وجه التخلف والسجون والظلامية.

وإذا كانت القضايا المشار إليها قديمة عبّر عنها جيل كامل من كتّاب هذه المنطقة من العالم، فإن الجديد في ما يقدّمه منيف هو محورة بعض جوانبها حول جغرافية الصحراء العربية وما تنتجه "سوسيولوجياً"؛ وهي جغرافية تحتل الرقعة الأوسع من مساحة العالم العربي ولها من دون شك تأثير في تكوين بعض المفاهيم والسلوكيات في بقاعه.

والى القضايا، تتجسّد في شخصيات منيف الروائية ولغته وأسلوبه اهتماماته السياسية ومواقفه الإنســانية. فجل الشخصيات التي يلجأ إليها لبناء عالمه الروائي من "المناضلين" السياسيين المنتمين الى الطبقات الوسطى الذين خيّبهم واقع مجتمعاتهم، فعاشوا المنفى والسجن أينما حلّوا. كما أن اللغة والأسلوب اللذين يعتمدهما في كتاباته يشبهان الى حد بعيد طبيعة هذه الشخصيات. فهو يختار اللغة المثقفة والشعبية في الوقت عينه: لغة المناضل المثقف، ولغة الناس العــاديين الذين "يناضل" في سبيلهم هذا المثقف. ويعمد الى استعمال الفصحى في السرد، والمحكية في الحوارات. وفي الأسلوب، يكثر منيف من استخدام لسان الراوي ليقبض على مسار الأحداث، ويؤثر أسلوب التذكّر الاعتراضي أو المنساب في سيــاق النص ليعرض قضاياه ويربطها بمسار الأحداث وأدوار الشخصيات.

ولعل "مدن الملح" هي التعبير الأبرز عن انشغاله بالقضايا التي ذكرنا انطلاقاً من شغفه بعــالمي الصحراء والنفط. فقد كثّف فيها لغته وأســلوبه الروائيين، كما غرف من زاده السياسي والاقتصادي ومن ذاكرته الشخصية واختصاصه الأكاديمي، ليقدم نصه الروائي المؤرخ لحقبة من أخطر حقبات التاريخ في الجزيرة العربية.

وسأسلّط في هذا البحث الضوء على الجــانب التوثيقي في "مدن الملح" الذي أراده منيف شهادة وموقفاً من الواقع التاريخي الذي عرفته المنطقة.

١٠٢٠ "مدن الملح" في توثيقها الاجتماعي التاريخي: مضمونها، وأسباب اعتماد شخصياتها منطلقاً للبحث.

تتكوّن خماسية "مدن الملح" من خمسة أجزاء، "التيه" و"الأخدود" و"تقاسيم الليــل والنهار" و"المنبت" و"بادية الظلمات".

وهي صدرت تباعاً، كما أسلفنا، في بيروت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٩.

تعالج "مدن الملح" في مضمونها قضايا اجتمـــاعية وإنسانية عامة أثارها اكتشاف الثروة النفطية في الجزيرة العربية في العقود الأولى من القرن الحالي.
تبدأ الخماسية بجزء أول هو "التيه"، يصوّر أناساً كانوا ملتصقين في وجودهم بالصحراء وحياتها، الى حين داهمهم النفط وأحدث زلزالاً غيّر معـــالم حضورهم، وأنتج نظماً قولبتهم وغيّرت صحراءهم.

ويعرض "التيه" مراحل الانتقال من طور ما قبل النفط الى طور ما بعده، من خلال مســـرحة الأحداث في حيّزين جغرافيين وزمنيين: "وادي العيون" (قبل ظهور النفط وغبّه) و"حران" (بعد ظهوره). ويسرد هذا الجزء تفاصيل العلاقات التي قامت بين أبناء الصحراء إثر اكتشاف النفط والدخول الأميركي المنقّب عنه، من منطلق البحث في الجدليات التي تولّدت عن أحداث تلك الحقبة وانعكاســـاتها الانسانية. ويجري التركيز على امتداد "التيه" على عدد من الشخصيات في تعاطيها مع المتغيرات ضمن مواقف تراوح بين الرفض والاستسلام والتواطؤ. كما يمهّد "التيه" لما سيليه من أجزاء من خلال إقحام شخصيات من خارج الصحراء وصلت إليها للإفادة من ثرواتها المتفجرة ونظمها المستجدة.

وفي الجزء الثاني، "الأخدود"، تترسّخ حياة ما بعد النفط، وتتتـــابع فصول التغيّرات والتحولات، وتصبح علاقة أهل الصحراء بمكانهم علاقة ذاكرة تتناقلها الألسن وتتحصّن بها في وجه الاجتياح النفطي، وفي وجه الوافدين وما أنشـــأوه من واقع غير مألوف. ويرصد هذا الجزء على نحو خاص حضور أحد الوافدين (الحكيم صبحي المحملجي) الســـاعين الى لعب دور سياسي يتخطّى الربح المادي ليصل، من خلال مجاورته السلطان (خزعل) في عاصمة السلطنة (موران)، الى حدود رسم معالم الدولة الناشئة وخطط تطورها. غير أن السعي للعب هذا الدور السياسي يسقط نتيجة الصراعات على النفوذ. فيدفع الوافد والسلطان الحاضن له ثمناً غالياً هو الإقصاء والنفي عن السلطنة.

أما الجزء الثالث، "تقاسيم اليل والنهار"، فيمثل حالة اعتراضية في سياق الرواية، إذ يعود الى مرحلة ما قبل النفط من جديد ليتناول ما جرى عشية ترسيم الحدود وإنشاء

الممالك في الصحراء مطالع القرن. ويقول بشكل أو بآخر إن أسباب الضياع لمجتمع ما بعد النفط لم تكن ناجمة عن ظهور النفط وحده، بل أيضاً عن العقلية التي سادت مكان ظهوره وتأثرت بالخارج البريطاني المتحكم به. فصراع القبائل والأفخاذ على السلطة فوق رقع الصحراء ومحاولات الاستئثار بالملك وإقصاء المنافسين عنه بشتى الوسائل، أضيفت الى دور الاستعمار البريطاني ومصالحه في السيطرة على المنطقة، لتنتج واقعاً مشرذماً لا انتماء فيه فوق الانتماء القبلي، ولا مصالح سوى المصالح الآنية.

وفي الجزء الرابع، "المنبت"، يعود الكاتب ليكمل ما آلت إليه الأحداث في الجزء الثاني من نفي للوافد (الحكيم) وللسلطان (خزعل)، ويعرض هذه المرة لتغرّبهما (في مدينة بادن بادن الألمانية) وانقطاعهما عن الجذور وضياعهما النفسي والجغرافي. ويصف هذا الجزء على نحو خاص الجوانب النفسية في شخصية الحكيم المحملجي وما آلت إليه من انكسار وانهيار.

ويختم الجزء الخامس، "بادية الظلمات"، الرواية عبر تركيزه من جديد على الواقع النفطي (في موران) والنفاذ منه الى الماضيين القريب والبعيد. ويشكل هذا الجزء قراءة في مآل سلطنة النفط وناسها المختلفين الى يومنا هذا، ورصداً للتفاصيل الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التي ترسّخت في حقبة ما بعد النفط وهبوط الثروة على أبناء الصحراء والوافدين للارتزاق منهم...

ومع قراءة الخماسية تبرز إمكانية استخلاص جميع الجدليات المحيطة بموضوعها الرئيسي من خلال دراسة شخصياتها. فهي التي تتفاعل مع كل حدث، وهي التي تروي كل معاناة، وهي التي تتجسد فيها نتائج الصراعات.

ولا يمكن تالياً فهم مدلولات "مدن الملح" الاجتماعية والتاريخية من دون فهم مواقف شخصياتها ومواقعها وردود فعلها على التطورات. ولعل في ذلك ما يفسر حشد الخماسية لأكبر قدر من النماذج البشرية التي رافقت الحقبة الزمنية المعالجة، وتركيزها عليها وعلى صيرورتها.

من هنا تنطلق قراءة هذه الأطروحة للخماسية من عملية تصنيف شخصياتها لجهة انتمائها المكاني الأساس من ناحية، ولجهة الموقف الذي اتخذته من النفط والسلطة التي أعقبته من ناحية ثانية. وفي هذه القراءة ما يسمح باستنتاج مدى نجاح "مدن الملح" في تقديم شهادة اجتماعية عن زمانها ومكانها.

واستند اختيار الشـــخصيات في هذا البحث الى تقدير عمق ارتباطها بالحدث، ومدى طبعها له بطابع جديد لم يكن مألوفاً قبلها، مما أدى الى استبعاد بعض الشخصيـــات المهمة من المعالجة، مثل:

• شخصية "أم الخوش"، أكثر الشخصيات الصحراوية خصوصية لكونها عاشـــت تنتظر بعفوية وصدق ابنها الذي رحل قبل سنوات مع إحدى القوافل، وماتت في أرضها من دون أن تبرح حال الانتظار (في "التيه")،

• شخصية "وضحة" زوجة "متعب" التي أكملت رسالته من خلال قيادتها عائلتهما عند الرحيل عن "وادي العيون" رغم صمتها المطبق والدائم منذ اختفائه (في "التيه" أيضاً)،

• شخصية "وداد" زوجة "الحكيم"، الشامية الوافدة معه الى الصحراء، التي تجسّد أنموذج المرأة الضائعة والحالمة الباحثة عن إشباع رغباتها وتطلعاتها في محيط مضطرب باستمرار يشعرها بالغربة والقلق ويدفعها أكثر فأكثر نحو الأنانية (في "الأخدود" و"المنبت" و"بادية الظلمات")،

• شخصية "الشيخة" المرافقة بجبروت لتعاقبات السلطة في المملكة بين السلطان المؤسس وأولاده، وما تقوم به من أدوار خفية في ترتيب الزوجات وضبط الأمور داخل كواليس القصور (في "الأخدود" و"تقاسيم الليل والنهار" و"بادية الظلمات").

وبالرغم من أن هذه الشخصيات النسائية كانت صاحبة مواقع مميزة في المساحة الفنية للخماسية، غير أنها لم تكن كذلك في مســـاحة الحدث الرئيسي. فإلى ذكورية المجتمع الصحراوي الطاغية التي تهمّش نساءه، كانت جميـــع النسوة محيّدات عن الحدث النفطي ومكتملات المعالم والمواقف بمعزل عنه، باستثناء وضحة زوجة متعب التي خرجت من واديها وصمتت بسبب النفط. غير أنها بقيت في ظل زوجها، حتى بعد غيابه، فلم تتميّز عنه الى حد يجعلها عنصراً محورياً في التماس مع ذاك الحدث.

الأطروحة تعاطت إذن مع الفئات التي تفاعلت مع اكتشاف النفط والدخول الأميركي أو نشأت نتيجة لتبعاتهما قبل أن تصبح فيما بعد سبباً لاستمرار هذه التبعات. ولهذا سقط الاستبعاد على الشخصيات النسائية المذكورة مثل سقوطه على غيرها من الشخصيات الكثيرة التي تحضنها الخماسية...

الفصل الثاني

أبناء الصحراء: بين محاولات الرفض والتواطؤ

أحاول في هذا الفصل الأول تسليط الضوء على الشخصيات الصحراوية الرئيسة التي ظهرت في "مدن الملح"، أي تلك التي ولدت في الصحراء وتكوّنت فيها ولم تغادرها قط.

وهدف هذا الفصل هو البحث في أشكال ردود فعل هذه الشخصيــات على التحولات الهائلة التي أحدثها ظهور النفط في صحرائها وما أنتجه من تبدّلات جذرية في أوجه حياتها كافة.

وسأعرض بداية مآل قوم الصحراء عامة في "مدن الملح" كما تحدد منذ لحظة وصول الأميركيين الى ديارهم تنقيبــاً عن النفط وحتى لحظة تدفّق الثروة وظهور "الدولة المورانية" على أنقاض بوادي الحقبة السابقة ومدنها. وسأعمد في هذا العرض الى استعادة المشهد الذي رسمه منيف في الصفحات المئتين الأولى من الخماسية، واستخدام لغته وصوره.

أصيبت الصحراء بكاملها بهزة. وصلها أميركيون "نصرانيون" يتكلمون العربية ويحملون كتباً مسحورة تعرف عن الصحراء وأهلها ما لا يعرفه أحد، ويركبون آليات تسكنها العفاريت والجان، ولديهم تكليف من الأمير بالعمل كما يشاءون وأنّى يرغبون. ومع إحساس أهل الصحراء بأن الأمير لم يعد لهم بل صار للأميركيين (١)، فهموا أن التصدي للأميركيين يعتبر عصياناً على الدولة وعلى حماة الإسلام!

فضلاً عن ذلك، لم يترك الانبهار بما جلبه الأميركيون وما هم قادرون على فعله مجالاً للشك في أن شيئاً لن يوقف الأحداث القادمة. فالصحراويون باتوا عاجزين عن النوم بعد رؤيتهم بأم العــين ما لا يمكن تخيل وجوده: سفن تعبر المياه، وآلات جهنمية تنبش الأرض وتقتلع الشجر والصخر، ونساء شبه عــاريات يسبحن ويرقصن ويداعبن الرجال: "لم يصدق أحد شيئاً مما جرى أمامه أو رآه رأي العين، لأن ما جرى يفوق الوصف ولا تكفيه أية كلمات، ولا يمكن أن يحدث أيضاً" (٢).

وما لبث انبهارهم أن تحول استسلاماً، ترجمه بيع أباعيرهم من إبل وجمال، ثم رحيلهم عن بيوتهم وتركها تهدم مقابل مبالغ من المال: "شعر الرجال بألم وحزن وهم يهدمون البيوت الصغيرة الفقيرة. أما الذين رحلوا الى التلال الغربية، فقد وزعت عليهم الخيام وأعطوا مبـــالغ من المال، لكي يتدبروا أمرهم، على أن يجري التعويض عليهم في وقت لاحق" (٣).

وفي ظل هذا الاستسلام، جرت محاولات انتقام من الأميركيين وأعوانهم المحليين، لكنها لم تأخذ طابع المقاومة الفعلية، بل بقيت ردات فعل متفرقة. فقد حصلت عمليات لإقلاق الأميركيين، بدأت بهرب عمـــال من الشركة، واستمرت بإطلاق ثعابين وجرابيع وضباء بين خيم معســـكر الشركة الأميركية وبيوتها (٤).

كما نما عند الصحراويين حقد على أبناء قومهم الذين تعهدوا أعمـــال الأميركيّين، وترجم في موقف العمال من إبن الراشد، أبرز هؤلاء المتعهدين: "وفي تلك اللحظات شعروا أن ابن الراشد عدو حقيقي. هو الذي جاء بهم الى هذا المكان وســـلمهم كالغنم الى هؤلاء. كانوا حاقدين عليه..." (٥).

أما التنفيس عن هذه المكنونـــات الغاضبة والحزينة والحاقدة فتم بالإضراب مرة(٦)، وبانتفاضة العمال ضد الشركة الأميركية والشرطة المحلية بعد صرفهم عدد منهم مرة أخرى (٧)...

غير أن ذلك كله لم ينفع، فالعجز كان عاماً. وهو بلغ حدود التخلي عن الأرض والذات، وحتى عن الموتى، إذ إن المقبرة القديمة حيث رقد أمواتهم نبشت وجرفتها الآلات لإقامة أوتوستراد مكانها (٨).

ولم تبق غير نبوءات العرّافين وحكمهم لتعبّر عما يخزنون من استسلام بحجة التنبؤ والحـــكمة، وإيمان بالغيب بديلاً عن العمل والكدح: "... من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطاق كل يوم من الأيام التالية بســـنة من هذي الأيام. أولها خير يعم البلاد وآخرها العباد تلهم الجراد. أولها أمطار وسيول وآخرها حاكم مجهول. أولها قمح ودبياج وآخرها زوان وعجاج. الناس رايحة دايحة ربها الفضة والذهب وحجها للفرج والذنب. الغني يأكل الفقير، والكبير يظلم الصغير وكل يصيح يا نفسي" (٩)، و"لو دامت لغيرهم ما وصـــلت لهم!" (١٠).

وإذا كان واقع الاستسلام الحزين قد احتل المشهد العام في الصحراء، فإن جدليات رفض وقبول وسلطة ظهرت في بعض زواياه. والشخصيات التي سأعالج في الفقرات التالية، نماذج عن فئات صحراوية ثلاث كانت استثنائية في تعاطيها مع الحدث.

الفئة الأولى هي فئة الرفض، تكوّنت من أشخاص إما وجهاء في قومهم، وإما على هامش مجتمعهم، أرادوا أن يتصدوا للاجتيـــاح النفطي، وكان بالنسبة إليهم أميركياً غريباً عنهم ومرذولاً.

الفئة الثـــانية هي فئة القبول والتواطؤ. وتشكلت بادئ الأمر من أفراد وجماعات ارتبطوا بمصالح مع الأميركيين والسلطات التي حضنتهم، وتميزوا بسلوكيات لم تكن مألوفة كثيراً قبل الحدث النفطي.

أما الفئة الثالثة، فهي فئة أركان الحكم أو السلطة، وقد تحولت من طور الى طور مع تدفق الثروة عليها ووصول بشر من خارج الصحراء لمشاركتها هذه الثروة.

٢٠١٠ ضياع الماضي وتأجيل المقاومة

سأتناول في هذه الفقرة شخصيـــات أربع سعت للتعبير جهراً عن حزنها ورفضها للواقع المستجد مع النفط ومع الدخول الأميركي. وهي شخصيات تشابهت في منطلقاتها، لكنها اختلفت في أشكال التعبير عن تلك المنطلقات.

ويمكن القول إنها جسّدت في مسلكها ومآلها حال أولئك الصحراويين الذين يعتبر صاحب "مدن الملح" أنهم اســـتبعدوا عن التأريخ "الرسمي" للجزيرة العربية، لكنهم ظلوا في ذاكرة من عاشرهم وانتظر تفجّر غضبهم وعودتهم من "تيههم"...

٢٠١٠١٠ متعب الهذال: الهروب والتيه

الشخصية الأولى التي تظهر في "مدن الملح" هي شخصية متعب الهذال. ويترافق ظهورها مع وصف "وادي العيون" الذي يحتل المشهد الأول في الخماســـية، وهو واحة تمثل سحر الصحراء المتفجّر من باطن الأرض أو الساقط من السماء: "فجأة، وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء" (١١). ويبرز متعب الهذال منذ البداية كجزء من "وادي العيون"، الجنة الصحراوية البكر. وهو من آل العتوم الذين التجـــأوا الى هذا المكان اتقاء

من تعقب الأتراك لهم نظرا لثورتهم عليهم. والعتوم فقراء، كرامتهم وأ مانتهم أهم ما في الوجود عندهم (١٢).

ومتعب ملتصق بوادي العيون يعشق الأرض ويتوهج فيها عمـــلا وزرعا وحصادا وبناء. وحضوره في مطلع الخماسية يتزامن مع وضع زوجته مولودا جديدا أسماه "مقبل"، أي مع فعل انبثاق حياة جديدة من صلبه ومع تجدد الدم في شرايين عائلته وأهله.

وبالرغم من حال السعادة والامتلاء فخرا بأولاده وعائلته وواديه المتبدية في أول ظهور له، ينتقل متعب على نحو مفاجئ الى حال مختلف بمجرد معرفته بوصول أجانب من الفرنج الى واديه يتقن بعضهم العربية. وهكذا، يتم الانتقال من وصف تاريخ وحاضر يضجان حياة ورضا، الى حال من الارتباك والقلق والتأزم.

لقد كان وقع وصول الأجـــانب الى الوادي بحثا عن الماء، كما ادعوا، صاعقا ومدويا على متعب إذ أحـــس بخطر محدق يتربص بعالمه. ومع كل يوم جديد كان تشاؤمه يتزايد، ومعه شـــتائمه ومخاوفه: "أكيد هؤلاء لم يأتوا من أجل الماء، إنهم يريدون شيئا آخر.... أسئلتهم خبيثة ملعونة: هل جاء أجانب غيرنا؟ هل ســـمعتم عن أجانب، عن إنكليز وفرنسيين جاءوا الى هنا؟ إنهم خائفون، عندهم ما يخافون منه، وأنت تعرف أن الذي يعمل عملا خبيثا يخاف من الآخرين" (١٣).

ويأتي تفسير منشــأ مخاوفه في ما بعد، فيتبين أن "نبوة" ما سكنته وأملت عليه الحذر والغضب والتشـــاؤم: "أما لماذا كان متعب الهذال بهذا الشكل ولماذا نظر الى هؤلاء الأجانب تلك النظرة القاسية المليئة بالمخاوف، فإن حالة من الإلهام، أقرب الى النبوة ملأت نفسه وحياته في السنوات الأخيرة!" (١٤).

وكما كان الانتقال سريعا من الحياة العادية الجميلة في ذلك الوادي الى حياة الترقب والخوف والشـــتائم، كان الانتقال أسرع الى الشعور بالعجز عن التصدي المبـــاشر وعن القيام بعمل يردع القادمين الجدد ومن يستضيفهم. فلا الأمير مبال من مخاوف متعب، بل على العكس من ذلك يعتبر الأجانب ضيوفا عليه وعلى ديرته ويطلب من الجميع التعاون معهم وتسهيل مهـــامهم، ولا أهل الوادي موحدون في موقفهم ثابتون في رفضهم لما يجري. والأسوأ أن ثمة من يتبنى القادمين ويقدم لهم المضافة والتكريم!

لم يقو متعب على تحمل المعاناة. كان ينتفض عند سـماعه أي خبر عن الأجانب وعن استمرار توافدهم الى الوادي بأعداد تتضاعف باستمرار مزودين بخرائط وأدوات غريبة عجيبة: "انتفض وهو يسمع ما يقوله الآخـرون، ثم اصفر لونه... كثيرون يتذكرون لحظة وصوله، يتذكرون كيف كان يرتجف مثل سعفة، وكيف كان ينظر كذئب" (١٥).

وعندما أيقن حدسا أن العمل الجماعي الرافض لوجود هؤلاء الأجانب ليس ممكنا، قرر القيام بمهمة التصدي لوحده. حمل سلاحه وتوجه الى حيث يقطنون: "كان يرفع سـلاحه، يصوبه الى المعسكر، ثم ينزل السلاح، ويبدو في نزوله منكسرا ذليلا، حتى إذا رفعه في المرة التالية، ربما بتصميم أكبر، كان بعد ذلك ينزله بذل أكبر..... ثم انقلب على جنبه، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيبوبة وربما الموت" (١٦). فكان انكسـاره الكبير. لأنه مع كل عجز عن فتح النـار كان يكرس العجز عن المقاومة والتصدي. وما زاد في حجم انكساره هذا أن ابنه فواز شهد عجزه. فكانت نتيجة ذلك العزلة والانكفاء عن الحياة الطبيعية.

اختفى متعب عن الوادي لفترة ثم ظهر من جديد. غير أنه قرر البقاء في الظهرة (منطقة مجاورة للوادي) ورفض جميع محاولات حمله على العودة الى الوادي. ومرض مرضا لم يفارقه يوما واحدا. فحصل ما يشبه الاتفاق الضمني: "أن ينسى الرجل، أن يعتبر ميتا أو كأنه لم يعد موجودا..." (١٧).

ومع بدء الجرافات والآليات الصماء المرعبة عملها في الوادي اقتلاعا للأشجار وتحضيرا لعمليات التنقيب عن النفط (ولم يكن أهل الوادي قد سمعوا وقتها بالنفط)، أفاق متعب وتحقق من الهزيمة ونهاية العالم: "إنها نهاية العالم، أو ربما نهاية مرحلة من المراحل الطويلة التي سيطرت على الحياة في هذه الصحراء البعيدة المنسية" (١٨).

لم يقو على شيء غير البكاء أمام قومه: "قالوا إنهم لأول مرة في حياتهم يشاهدون رجلا مثل متعب الهذال يبكي. طافت دموعه تتسـاقط بغزارة، لكن بصمت أيضا. كان صامتا تماما... كان ينظر من خلال الدموع الى الوادي كله، كان ينظر بصمت ويهز رأسه"(١٩).

ولعل دموعه هذه، ونظراته التي حضنت الوادي بأسره كانت إيذانا منه بضرورة الرحيل النهائي والاخـتفاء: "نظر الى الجميع، نقل نظراته من وجه لآخر، وبدا أنه يتمعن، كأنه لا يريد أن ينسى، حتى إذا نظر الى كل الوجوه لكز ناقته، فاهتزت اهتزازا

قويا وهي تنهض، وبدا متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة، ثم بدا مثل غيمة، أما حين بدأ حركته السريعة فقد أصبح مثل طير أبيض... وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى ... واختفى!" (٢٠).

استحال متعب إذن خيمة كبيرة يمكن أن تحضن الجميع وتعلن الحياة. ثم تحول غيمة تغطي الوادي الذي يتطلع إليها بتضرع لتنزل ماءها عليه. لكنه ما لبث أن اتخذ شكل الطير الأبيض وراح يبتعد ويبتعد حتى تلاشى.

تضاربت الآراء حول متعب: رأى بعضهم أنه لا يترك الوادي، فهو يموت ولا يرحل. وقال البعض الآخر إنه رحل منذ زمن طويل، حين قطعوا أول شجرة في الوادي. أما عرافة الوادي نجمة المثقال فقالت لما سئلت عن متعب: "إنه لا بد عائد، وقالت إنه يتجول في الصحراء، ينتقل من مكان الى آخر، لكنه ينـــام في مكان بعيد، وهذا المكان قريب من البحر، وسيبقى هكذا سنين لكنه سيعود، وحين يعود ستكون عودته كريح السموم، قوية كاســحة، لا يمكن لأحد أن يردها، أو أن يقف في وجهها"(٢١).

الثابت أن حقبة جديدة في "حياة" متعب بدأت مع رحيله. وقد أسس لهذه الحقبة شكل الرحيل. فدموع متعب التي سالت عبرت عما يشبه الموات لملوحتها، ولكونها وضعت للمرة الأولى حاجزا بين عينــيه وواديه. غير أنه بعد انهمارها تشبع من مناظر الوادي ونظر الى جميع أفراده، أو هكذا قيل، محــاولا تسجيل محياهم في ذاكرته. ثم نهض كالخيمة الكبيرة محتضنا ذاكرته، فاستحال غيمة خزانها الوجوه والأمكنة، وطار خفيفا كطير أبيض قادر على الابتعاد والاقتراب واختصار المسافات والتحليق ورؤية كل ما تحته. لكأنه روح صعدت الى السماء لتشهد من فوق الحياة بأكملها.

ومنذ اختفائه، بات متعب رمزا أشبه بالأسطورة، إذ جرى الحديث عن ظهوره أو عن أعمــاله مرات كثيرة (عشــرة، جميعها في "التيه")، وارتدى كل ظهور له أو عمل قام به طابعا خاصا.

ففي المرة الأولى ذكر متعب على لســان أهل "وادي العيون" حين رأوا ما حل بواديهم، إذ تخيلوا أنه كمن سبقه من "العتوم" دخل الصحراء ليعود فيحولها جــحيما في وجه أعدائه. وبالرغم من أن بعض الأهالي أكد أنه لن يقوى على اعتماد الســلاح وسيلة للتصدي للأميركيين كما فعل آباؤه وأجداده مع الأتراك، أصر المتفائلون على أن عودته

ليست بعيدة، وأنه: "سيشعل الدنيا، قد يقتل وقد يخرب ويمكن أن يحرق أيضا. أما أن يترك الأميركان، خاصة بعد أن فعلوا ما فعلوا في وادي العيون، فأمر مستحيل"(٢٢).

وفي المرة الثانية يأتي ذكر متعب على لسان شعلان ابنه الذي يدعي أنه رآه يمر في المعسكر قرب الخيام المشيدة على أنقاض وادي العيون: "كان كالبرق يظهر ثم يغيب، لا يريد من أحد أن يقترب منه، أو أن يزعجه" (٢٣).

وفي المرة الثالثة ظهر متعب من خلال عيني شعلان أيضا، الذي أشار الى أخيه وابن عمه الى حيث والده: "مر من هنـــاك، كان على ناقته ومسرعا كأنه الطير" (٢٤). غير أن الآخرين لم يرياه ولا هما ميزا من يشبهه حيث كان ابنه يشير.

أما المرة الرابعة فكانت شبيهة بسابقتيها من حيث كونها مرتبطة بمشاهدة، أو بظهور مفترض يتبدى لأحد أولاده دون باقي النـــــاس. فوسط طوفان لم تشهده تلك الناحية من الصحراء من قبل، وفي جو من الرعب والأهوال المغلف الأرض والبشـــر، لمح فواز أباه: "ومع التماعة البرق التي شقت الســماء، وخلقت خوفا فوق الخوف، ظهر متعب الهذال. بدا كبيرا شامخا، وأقرب الى البياض. كان يحمل عصاه بيمناه ويشـــير الى الناس من الضفة الثانية للوادي. كانت هيئته شديدة القوة والوضوح، حتى لبدا أقرب من الضفة الثانية، أو كأنه وسط الماء. كان صوته ناصعا وأقوى من صوت الرعد وتدفق الميـــاه وصراخ الأطفال والنسوة. قال لكل الذين اجتمعوا في روضة المشتى: لا تخافوا... لا تخافوا من اللي تشوفوه هالحين"(٢٥). وما إن اختفى حتى اشتد المطر وازداد قصف الرعد، وسادت هتافات "لا إله إلا الله" مقاومة الخوف والموت. وأصيب فواز بنوبة من الانفعال لا توصف إذ حاول عبور الوادي من فوق طوفان الميـــاه لبلوغ الضفة الأخرى ومعانقة أبيه، غير أن ابن عمه والناس الموجودين أنقذوه دون أن يفهموا أسباب اندفاعاته ومناداته على والده.

ثم اتخذ الحديث عن متعب، وافتراضات ظهوره شـــكلا آخر. فمتعب بات مرادفا للبحث في الثأر من الواقع المستجد ومن يقف وراءه، من أميركيين ومتعاونين معهم. وهو بات المخلص الذي ينتظره العمال ويعلنون استعدادهم لاستقباله وحمايته: "وهم يضيفون أن ابن الهذال والبدو الذين معه إذا جاءوا فســـوف تهيأ لهم المنامة، وسوف يتم إخفاؤهم في أمكنة لا يستطيع أحد الوصول إليها" (٢٦). وبهذا المعنى تحول متعب الى فزاعة يخشـــى منها أقرب الناس الى السلطة والأميركيين. فابن الراشـــد مثلا، الذي تحول من

وجيه في وادي العيون الى مسؤول عن استقدام العمال للشركة وسـمسار للأراضي، كان يحس طيلة الوقت، ومنذ وفاة أحد العمال أثناء الخدمة وما أدى إليه الأمر من توتر وقلاقل وتهديد بالثأر، بهاجس الخوف من "مجموعة مسلحة تريد قتله ووراء هذه المجموعة متعب الهذال بالذات" (٢٧).

ثم تحول متعب الى شـبح مسؤول عن أي مشاغبة أو إزعاج للأميركيين والمتعاونين معهم. فالحريق الذي اندلع في معسكر الشركة قبيل افتتاح خط الأنابيب أثار شكوكا، وحمل متعب مسؤولية إشعاله: "بدأت الأسئلة: من فعل هذا؟ لماذا فعله؟ ومع الهمسات والتساؤلات والاجابات المبهمة تأكد شيء واحد: متعب الهذال. إنه الشخص الوحيد الذي يمكن ويستطيع أن يفعل ذلك... ومن جديد أصبح متعب الهذال هاجسا يملأ حياة المعسكر.... ظل متعب الهذال شبحا يغيب ويحضر طوال فترة مد خط الأنابيب"(٢٨). حتى إن الشركة نفسها شكت عند وقوع الاضطرابات العمـالية في أن يكون متعب خلف هذه الاضطرابات، وراح مندوبوها يسألون عن الرابط بين متعب والعمال (٢٩).

وحين اندلعت انتفاضة العمال وثاروا ضد الشركة والشرطة، احتل متعب موقعا مميزا في الحدث، إذ كان القوة الدافعة لولديه في القتـال: "قال كثير من الناس إنهم رأوا فواز الهذال وأخاه مقبل يطيران فوق الرؤوس. كانا كالعصافير يطيران ويصرخان: جيناك ولبيك يا يوبه" (٣٠). كما أنه رفع معنويات الحشود المتدافعة لاقتحام معسكر الشركة، إذ سرى خبر قيامه بمواكبتها، وذكر بعض العمال "أنهم شاهدوا من بعد رجلا على ناقة بيضاء يطارد الجنود ويطلق النار عليهم، وأنه اقتحم بوابة المعسكر الرئيسية، وقد تساءل الكثيرون ما إذا كان الرجل متعب الهذال" (٣١).

بذلك، يكون متعب الهذال قد جسد المتعذر الممكن، بمعنى أن استمراره بعقليته وبأساليب تصديه كان متعذرا، لكن أعماله وأخبار مقاومته كانت ممكنة. ولهذا بقي لكنه لم يعد، تاه لكنه لم يمت. بقي ضميرا حيا، لكنه مختف وضائع. لكأنه الندم أو التحسر على المفقود الذي تريده أن يعود ويظهر، لكنه لا يستطيع الى ذلك سبيلا.

ولعل تطور رمزه من مختف يظهر لولديه، الى شـبح منتظر تحيط به هالة من الجلال، ومن ثم الى منفذ للهجمات ومحرض على الثورة والقتال، دليل على حضوره الدائم كضمير حي، وإن كان مستترا.

غير أن متعبا جسد في سيرته أيضا مفهوم الثورة كعمل ميتافيزيقي، حيث القرار الغيبي والخرافات والأساطير والعرافة تحل مكان العمل المنظم والمقاومة الجماعية، في حين أن الطرف الآخر يعمل كمجموعة متماسكة تملك الآلات والتكنولوجيا والمعرفة العلمية.

كما أنه آثر محاولات التصدي الفردية انطلاقا من النبوة، فانتهى الى الدموع والرحيل. وإذا استثنينا ثورة العمال التي تحولت خلالها ذكراه وملامحه محرضا لبعض العمال على القتال أو على إيواء متعب واستضافته، لم تظهر على امتداد "التيه" أي مساع لدى أهل الصحراء لمشاركة أطياف متعب الثورة والنضال. وفي ذلك بروز لمفهوم الضيافة عندهم بما هو فعل تقليد وليس فعل تشارك أو دعم مساعدة.

وفي مطلق الأحوال، فإن اسم متعب الهذال غني كشخصه بالمعاني والاحتمالات. فالى التعب الذي يحوي، ينقلنا الهذل الى أواسط الليل، أو الى الإسراع في السير، أو الى خفة السـهم أو الذئب أو الفرس. وجميعها معان تمت بصلة الى متعب إن لجهة ظهوره منتصف الليل والتحافه الظلام، أو لجهة خفته وسرعته وشراسة الذئاب وأصالة الأفراس التي تغلفه في تعبه الذي لن يزول.

٢٠١٠٢ . *إبن نفـاع: العنصر الديني كمنطلق للصراع*

يمثل ابن نفاع شكلا آخر من أشكال الرفض. فهو رجل متدين يعيش في حران في مرحلة كانت الشـركة الأميركية خلالها قد استقرت وركزت أنشطتها. له مكانته بين عامة الناس، وهو هادئ طويل البال، يتأنى قبل اتخاذ المواقف ويدعو الى التروي. لذلك، لم يكن معاديا للأميركيين ومن يستقبلهم من أهل الصحراء في البداية، بل بقي حذرا يراقبهم ويحـاول تكوين صورة عنهم وعما يبغونه، الى أن "تأكد" من أنهم يشكلون خطرا ما: "الآن تأكدنا أنهم كفار، كلهم كفار، وكافر كل من يجـلس معهم"(٣٢).

ومنذ تأكده هذا من "شرهم"، تحول ابن نفاع في مجالس الرجال في المقاهي الى محرض ضد الأميركيين يدعو الى مقاطعتهم: "الأميركان جاءوا وجاءت معهم العفاريت، وكل من يشرب ماءهم، كل من يأكل زادهم... يدخله عفريت.." (٣٣). كما بات يخاصم أعوانهم المحليين ويعدهم مذنبين متعاونين مع "الشر": "إبن الراشد شرق وغرب. جمع الناس من كل مكان وساقهم للأميركان. ساق الغنم للذيب، وعلى كل ذبيحة، على كل

راس، يتسلف من الأميركان" (٣٤). ومع الوقت، تبلورت مشاهداته لما حمله الأميركيون من معدات وما بات يتداول في حران من أمور حولهم لم يكن أحد يتخيل وجودها، وازداد خوفه من نهاية الدنيا ومن الانجراف في الكفر، وراح يصلي ويبتهل لربه لحمايته من أي ضلال يمكن أن يصيبه كما أصاب غيره من بني قومه المتعاملين مع الأميركيين: "اللهم يا رب، يا مالك الملك، يا قوي، يا رحيم.. أمتني على دين آبائي وأجدادي، على دين نبينا محمد، ولا تجعلني عاصيا كما عصي قومي. إسمعني يا ربي واستجب لدعائي" (٣٥).

وابن نفاع صديق حميم لمفضي الجدعان، طبيب حران الشعبي، يعطف عليه ويتضامن معه. ولكنه لاتزانه وعدم تسرعه في أخذ المواقف من الناس، اختلف وإياه في الموقف من الحكيم صبحي المحملجي، الطبيب الشامي الوافد الى حران. ففي حين عده ابن نفاع إنسانا متعلما يمكن أن يساعد الناس، راح مفضي يشتمه ويدعو الناس الى محاربته. وبعد اكتشاف "طمعه ووصوليته"، كان ابن نفاع الوحيد الذي تصدى للحكيم ولمظاهر غناه الفاحش. فحين أقام المحملجي أقواس نصر ترحيبا بزيارة ولي العهد خزعل الى حران، عبر ابن نفاع عن رفضه وازدرائه لهذه المظاهر: "الوحيد الذي أظهر رفضا وصل حدود الازدراء هو ابن نفاع... كان ابن نفاع الشخص الوحيد الذي فعل شيئا للتعبير عن عدم الرضا، لكن حركاته التي أضحكت الرجال، وأخافت محمد عيد، ما لبثت أن ضاعت في حمى الاستعداد والانتظار" (٣٦).

وبقي ابن نفاع صاحب حضور ومونة على الجميع في حران. فحين سجن مفضي الجدعان بادر الى التوسط مع الشرطة لإطلاقه، وكفله وأخرجه من السجن وآواه عنده.

وعند مقتل مفضي عبر ابن نفاع عن غضبه من الحكيم خلال التشييع، إذ "أكد الناس أن ابن نفاع انفصل عن الجنازة قرب عيادة الدكتور صبحي المحملجي وبال. أما آخرون، فينفون أن ابن نفاع بال ويقولون إنه تقيأ" (٣٧).

ومع اتهامه الأميركيين بقتل مفضي، أخذ شكل تصدي ابن نفاع لهم ولعملائهم المحليين يتصاعد. فبعد الشتائم واللعنات ومن ثم التعبير عن القرف خلال جنازة مفضي، انضم ابن نفاع رغم تقدم سنه الى العمال المنتفضين، وشارك معهم في اقتحام سور الشركة والاشتباك مع حراسها. وقد أدى ذلك الى إصابته. غير أنه طمأن الجميع داعيا إياهم الى عدم الخوف ومواصلة الانتفاضة: "ذبحني خادم الأميركان.. لكن لا تخافوا.." (٣٨).

وفي نهاية "التيه" يتبدى بوضوح أفول مرحلة من مراحل الحيـــاة في الصحراء، ويبرز ابن نفاع كشـــاهد على ذلك الأفول. فيرى أن دم مفضي راح، وأن ما كان يمثله من تمسك بنمط حياة قديم قد راح أيضا، وأن المطلوب اليوم هو الاعتراف بذلك والتفاؤل بالخير: "تفاءلوا بالخير... لكن لا أحد يعلم بالغيب" (٣٩).

وإذ لا يعني موقفه هذا استسلاما للقدر، إلا أنه يعبر عن فهم واقعي لحجم المتغيرات التي طرأت وصعوبة التصدي لها بأســـاليب المرحلة الماضية التي جسدها مفضي الجدعان، لأن تلك الأساليب ماتت بموته.

وحين يعود ابن نفـــاع ليطل علينا في "الاخدود"، تأتي إطلالته لتبين نهايته. فهو حافظ على جوهر موقفه، لكنه لم ينجح طبعا في تغيير شيء. فالعاصفة كانت جارفة. وجل ما كان يحاوله هو الذود عن المقبرة القديمة التي تزيلها الجرافات دون جدوى: "ورغم أن ابن نفاع صرخ وشتم وبصق في وجه سواق الآلات ، لم يجد حلا في النهاية سوى أن يركض مع عدد من الفقراء ليرفعوا عظام بعض الموتى قبل أن تدوسها وتمزقها الآلات" (٤٠). ثم قضى هو نفسه بعد أيام قليلة من "افتتـــاح" المقبرة الجديدة على طريق عجرة وتسويرها بسور عال.

جسد ابن نفاع الرفض بالصلاة وعدم الرضا. فالخلاص بالنسبة إليه كان، بعد ترو وصبر، دينيا مستنكفا. وظل غضبه بالتالي مخنوقا وفرديا غير معمم أو محفز على عمل جماعي مقاوم. وفي ذلك إشارة مرة أخرى الى المسلك الفردي التطهري الذي لا يتوخى النظر الى المستقبل، رغم الوعي باستحالة اعتماد أساليب الماضي.

ولعل نهاية ابن نفاع بعيد جرف المقبرة القديمة التي حاول إنقاذها دلالة على المآل الذي وصل إليه في مسيرته للتمسك بثيابه وذاكرته وماضيه عوض التوجه الى الآخرين والعمل معهم من أجل المستقبل.

ويعكس اسم ابن نفاع جانبا أساسيا من شخصيته "المرموقة والمحترمة" في حران. فهو نفاع للناس يقدم لهم النفع ويساعدهم.

٢٠١٠٣. *مفضي الجدعان: موت البدائية*

يطل مفضي الجدعان في سياق الأحداث الدائرة في حران بعد قيام الشركة فيها. ويأتي التعريف به على أنه لم يكن "فقط الحكيم لحران كلها قبل وصول الدكتور صبحي

المحمـــلجي، بل كان أيضا ملبي الحـــاجات كما يطلق عليه... وهو لم يتعامل في يوم من الأيام بالنقود ولم يخف احتقاره لها، كما لم يتعامل لقاء ما يقدمه من خدمات بمقابل"(٤١).

ومفضي إنسان لم يتغير. بقي بسيطا يجول الطرقات بحثا عن عمل يؤمن له الاســتمرارية في الحياة. يعبر بصدق عن كل ما يدور في باله من قضايا، ولا يتردد في إطلاق الأحكام على الناس المحيطين به إن هو أحس بقيامهم بما يتعارض مع قناعاته وقيمه.

ومفضي غالبا ما يدفع ثمن صدقه وصراحته. ففي الماضي، كان الثمن المزيد من الفقر والتسكع. أما مع المتغيرات التي وقعت منذ وصول الشركة وما رافقها من مستجدات كمثل إنشاء جهاز شرطة ووجود سماسرة ومتمولين، فقد بات مفضي عرضة للاعتداءات والتهديدات بالقتل والسجن، كما بات مستهدفا بالشائعات والاتهامات على أنواعها: "أرسل دحام رجالا ضربوا مفضي وأدموه، لأنه تجرأ وقال إن دحام يسرق الناس، يسرق العرب والأميركان، يسرق الأحياء والأموات... وبعد هذه الحادثة ضرب مفضي مرة أخرى، ولم يعرف ما إذا كان الدباسي وراء ذلك أم النقيب، لأن مفضي شتم الإثنين... وفي مرة ثالثة سرق من مفضي الخرج الذي يضع فيه كل شيء، وبعد يومين وجد الخرج مطروحا قرب الجـــامع، وكل ما كان فيه من عقاقير وأدوية تالفا وقد اختلط بالتراب... لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد ذكر بعض الرجال الذين وصلوا حديثا من عجرة، وكانوا يعملون عند دحام، ولم يكونوا قد عرفوا مفضي بعد، ذكر هؤلاء أن مفضي هو الذي تسبب بموت تركي المفلح" (٤٢).

ومفضي، الذي كان يسمع ما يقال فتنفتح عيناه على اتساعهما دهشة واستغرابا وخوفا، لم يكن يتصور أن تصل الدناءة بالأغنياء المحيطين به الى حد ترويج هذه الأخبار الملفقة عنه. وكان كل مرة عوض التراجع والاحتراس، يندفع أكثر فأكثر تصديا لهم.

غير أن الصدام الأســـاسي والحاسم بالنسبة الى مفضي، كان صدامه بالدكتور صبحي المحملجي، الوافد الى حران لافتتاح عيادة ومستشفى فيها. فمفضي أحس بالخطر يتهدد مستقبله في حران، والدكتور المحملجي بادر منذ وصوله الى اتهـــامه بالدجل، وتحميله مســـؤولية أي وضع صحي متردٍ يصيب أيا من المرضى الذين يعالجهم: "كان الدكتور صبحي، وهو يكشف على الجرح يصرخ: الدجال الذي داواه لازم تكســـر يده، يجب أن يقضي حياته في السجن، لأنه قتل الرجل، وحتى لو عاش، يمكن أن تقطع الساق

كلها" (٤٣). ومفـــضي كان في هذا الصراع، بطبيعة الحال، الحلقة الأضعف. فقد أدى به الى السجن نتيجة تهمة لفقها أعوان الحكيم ضده. وكان بذلك أول ســجين في حران (ولم يكن السجن وقتها سوى مستودع).

ثم توالت عمليـــات توقيف مفضي وزجه في السجن بتهم مختلفة، الى أن كانت تهمة "المتشرد" التي شكلت فتحا في القاموس الحراني. فقد استخدمها الدكتور المحملجي في أحد مجالس الأمير، وراقت للأخير العبارة، فأمر بسجن مفضي بتهمة التشرد.

ومع مرور الوقت وتكرر عمليات التوقيف والحبس، تغيرت أشكال معاملة الشرطي جوهر لمفضي إذ تدرجت من الإهانات اللفظية الى الاعتداء بالضرب، وبات الحبس مسألة طبيعية ترافق حياة مفضي، ولا يقيه من طول فتراتها غير وساطات ابن نفاع وكفالاته.

ولعل حالة السجن الأخيرة التي تعرض لها أدت الى تبدل حاله بالكامل. فالذين رأوا خلال الأيام الثلاثة الأولى التي تلت إطلاقه "أن مفضي بدا متعبا، شـــاحب اللون، ونور الشمس يؤذي عينيه، ما لبثوا أن لاحظوا قوة غير عادية تدب في جســـده وعينيه، وأكثر من ذلك بدأ يتكلم بصوت عال، أما الابتسامة، ابتسامة التحدي، فلم تفارق شفتيه أبدا" (٤٤). وقد ترافقت ابتسامة التحدي هذه مع نشـــاط علاجي مكثف قام به مفضي، إذ عالج العديد من الحالات التي استعصت على الدكتور المحملجي، أو تلك التي رفض استقبالها لفقر أصحابها وعدم قدرتهم على تأمين كلفة العلاج.

ونتيجة لذلك، أحاطت بمفضي هالة أسطورية كتلك التي أحاطت بمتعب الهذال لحظة ارتحاله. وأحس جميع ســكان حران بوجوده بينهم، وخصوصا في يوم سبق اختفاءه: "لا يدري أحد مـــاذا فعل مفضي بين ضحى ذلك اليوم والظهر، ولا يدري أحد أنى ذهب أو من رأى... إن الغموض الشـــديد يحيط بكل خطوة وبكل تصرف وبكل دقيقة... لكن رغم هذا الغموض، فإن كل إنسان في حران، حتى من كان بعيدا، يؤكد أنه رأى مفضي أو سمع صوته أو أحس به يمر قريبا منه... العمـــال أكدوا أنهم رأوه... ويؤكد ثلاثة من الصيادين أنهم رأوا مفضي في زورق أبيض. كان بعيدا في عرض البحر... وفي السوق، في الشوارع الرئيسية والشوارع الصغيرة الضيقة، أكد الكثيرون أن مفضي مر من هنـــاك، توقف عند بعض الدكاكين... أما في المقهى فكل الذين كانوا قبل الظهر رأوا بتأكيد حازم مفضي حين مر... والنسوة في البيوت حتى البعيدة منها... قلن

إنهن رأين مفضي الجدعـــان... وفي وقت متأخر، أكد اثنان من الجنود لأصدقاء لهما أنهما شـــاهدا مفضي يمشي ببطء، وأنهما حينما التقيا به عند خزان المياه ابتسم لهما، رغم أن واحدا منهما كان قد ضربه في المرة الأخيرة، حين كان في السجن" (٤٥).

بذلك، اتحد مفضي بمدينته حران، ببحرها وبيوتها وشوارعها ومقهاها، كما احتل عيون أهلها جميعا بمن فيهم شرطتها، وأصبح يمثل كيانها ووجدانها.

وازداد وجوده توهجا وإشعاعا، وملأ مساحة أخذت بالاتساع حتى احتلت مخيلة أهل حران وحركتها.

وفي ذروة هذين الاحتـــلال والتحريك، تأكد اختفـــاؤه. بحث الجميع عنه منطلقين من إحســـاسهم بأنهم رأوه بينهم. وطال البحث عنه، واستحكم الشعور بحضوره الى أن عثر عليه ابن نفـــــاع مستلقيا قرب خزان المياه، وجهه صوب الأرض ويداه تحفرانها. كأنه في ذلك لم يكن يؤكد تمسكه بترابها فحسب، بل تجذره في هذا التراب أيضا. كان مفضي ينزف من خاصرته والابتسامة على شفتيه.

حمله ابن نفاع، وحاول هو أن يخفف من ثقله على حامله قدر الإمكان. وحين وصلا الى البيت، وبعد أن تأكد مفضي من المكان الذي نقل إليه وتأمله جيدا، أغمض عينيه. كان ذلك في الصباح.

وأرسل ابن نفاع يستدعي الدكتور المحملجي ليأتي ويسعفه، فاعتذر مساعد الأخير بحجة أن الحكيم في غرفة العمليات.

وعند الظهر، "قال الكثيرون في السوق وفي معســـكر العمال، وقال أحد الصيادين أيضا، أن رجفة قوية أصابتهم. وقال إثنان من عمال المحجر أن الرجفة كانت من القوة الى درجة أن المهدات التي كانت بأيديهم وقعت. أما أبو أســـعد الحلواني فقد سقطت من بين يديه صينية مليئة بأقداح الشـــاي وانكسرت الأقداح كلها...." (٤٦).

وعصر اليوم ذاته شيع مفضي الجدعان. "حران كلها خرجت لوداعه.... وقد أكد كثيرون أن الجنازة وهي تجتاز شارع الراشدي، وقرب عيادة الدكتور صبحي المحملجي، وفي لحظة معينة اضطربت وكأن الميت استيقظ، وأكد الذين كانوا يحمـــلون النعش أن الحركة كانت قوية جدا ومفـــاجئة، حتى أن النعش كاد يقع من بين أيديهم... وفي تلك الليلة ذاتها مـــات الغزال الذي كان في بيت ابن نفاع..." (٤٧).

ومع موته، ازداد حضور مفضي في حران. فالى الحزن والتوعد بالثأر لدمه، أصيب الأولاد بحالة من البكاء الطويل الموصول، وجعلوا يتذكرون مشاهدات صادفتهم حيث كانوا في حران ظهرا في الوقت نفسه الذي توفي فيه مفضي: "فالأولاد الذين كانوا على الشاطئ شاهدوا غزالا كبيرا يهوي في البحر. أما الذين عادوا من المدرسة الى التلال الغربية... فقد توقفوا لحظة سمعوا صرخة قوية أعقبها خروج طيور بيضاء من نوافذ البيت ومن بابه. كانت طيورا أكبر من أية طيور أخرى، وأكبر مما رأوا في أية مرة"(٤٨).

ومن جديد، يتشـــابه مفضي بمتعب الهذال، إذ تزداد الرموز المحيطة بهما لحظة التيه أو الموت توهجا: متعب احتضن وادي العيون في دموع عنينه عند رحيله وتحوله غيمة، ومفضي نبش الأرض وحاول الدخول فيها والتجذر في تربتها قبيل وفاته مبتسما. ولم يتأكد موته إلا عند موت الغزال، الذي كان قد شفاه، وسقوطه في البحر.

ومفضي نهض من موته بعد ذلك للحظات هي عينها التي ظهر فيها متعب للمرة الأخيرة، إي عند اشتعال انتفاضة العمال ضد الشركة. فقد قال المنتفضون "إنهم شاهدوا طيفا أقرب الى الانسان يطير فوقهم ويشبه تماما مفضي الجدعان. وأكد هؤلاء أن الجنود الذين أطلقوا النـــار كانوا في حالة من الفزع بلغت درجة الرعب والصراخ، وأن أكثر الطلقات وجهت الى هذا الطيف، الى مفضي الجدعان..." (٤٩). واستدعى انتفاض مفضي في موته وحضوره الرمزي مهامه الأساسية كطبيب شعبي، فراح "يداوي الجرحى ضاحكا في ثوبه المطرز بالرصاص" (٥٠). لكن، ومع انتهاء الانتفاضة وعودة الأمور الى ما رســت عليه، اختفى مفضي من جديد. وتأكد موته هذه المرة، إذ قال ابن نفاع لخزنة التي كانت تعاون مفضي في بعض مهامه: "دم مفضي، يا خزنة، راح... راح" (٥١)، وأقفل "التيه" على هذه العبارة.

وثمة تداخل على صعيد الإسم في معاني "مفضي الجدعان" بين الكثير من المفـــاهيم التي تتقاطع وسط شخصيته. فأفضى الى، أو أوصل الى أو أنتج أو أدى الى، تكملها معاني الجدع وهي الحبس أو الســـجن أو السنة التي لا خير فيها أو سوء الغذاء أو الشتم والمخاصمة. وبهذا المعنى، نقع على توصيف يشبه بالإجمال شخصية مفضي وخصاله ومعاناته...

٢٫١٫٤٫٠ شمران العتيبي: واقعية المواجهة والاحتمالات المؤجلة

منذ لحظة ظهوره في "الأخدود"، يمثل شـــمران العتيبي حالة مواجهة وتصد. فهو ابن موران، المدينة التي استتبت فيها الأمور للسلطات الجديدة. وهو يعايش سياقا تاريخيـــا تكرست فيه الأوضاع التي جرى تأسيسها عند دخول الشركة الأميركية المنقبة عن النفط، والتي خلقت أرضية خصبة لمستفيدين محليين ووافدين مستثمرين.

كما أنه يظهر بعد تولي السلطان خزعل مقاليد الحكم خلفا لوالده خريبط. ويترافق ظهوره في موران مع الحديث عن تمسكه بأرضه ورفضه بيعها. وبرفضه هذا يعرض شمران نفسه لمخاطر عدة ليس أقلها مصادرة أرضه دون التعويض عليه. ويقود عنـــاده ورفضه "أحد أصدقائه الى دخول اللجنة المحددة قيمة الأرض كي لا تذهب أرض شـــمران من دون ثمن ويتكلف فوقها من كيسه ثمن الكوشان وتحديد الأرض"(٥٢).

منذ البداية إذن، يتولد شعور أن شمران سيكون عنصر مواجهة مع ممارسات السلطة في المرحلة الجديدة.

وشمران من شخصيات السوق والحياة العامة في موران بامتياز. فالأيام "التي غاب فيها عن الســـوق قليلة، والأيام التي لم تنقل عنه قصة أو خبر أقل" (٥٣)، وهو بذلك جزء من ذاكرة هذه المدينة ومن حياتها اليومية.

ولشمران توأم في موران، من حيث كونه يكمله من دون أن يماثله. وهذا التوأم هو صالح الرشدان الذي "بمقدار الثبات الذي يخلقه شمران في سوق الحلال، ويعطيه ملامح شديدة الظهور، فإنه يشاركه في ذلك، بل ويزيد عليه..." (٥٤). فصالح الرشدان مجذوب موران وفقيرها الذي قست عليه الظروف وظلمه الناس كما لم يظلم أحد.

والعلاقة بينه وبين شمران علاقة خاصة لا تشبه أية علاقة أخرى: فإذا "كان لشمران ذاكرة تشبه الأرض والمطر، فإن صالح لا يقل عنه، يعرف الناس من أصواتهم، إذ يميزهم دون أن يرفع رأسه، كما يشـــم رائحة المطر قبل قدومه بساعات" (٥٥). وإذا كان شمران يتمتع بما يشبه الحصانة في موران حين يشتم السلطة وأركانها (٥٦)، فإن صالحا يتمتع أيضا بما يشبهها كونه يعتبر مجذوبا لا قيمة لأكثر ما يقول.

ومع أن شمران كان الوحيد الذي يحتمل صالحا وشتائمه ومشاكله التي لا تتوقف، إلا أن الأمور تتدهور أحيانا بينهما إذ يرى شــــمران أن صالحا لا يستوعب تبدل الحال

(٥٧)، وعليه أن يهدأ قليلا. وحين لا يتجاوب الأخير تقع القطيعة بين الرجلين، لكنهما يظلان متعاطفين مع بعضهما.

يتشابه شمران وصالح في مسارهما وعلاقتهما وموقعهما كثيرا بابن نفاع ومفضي الجدعان. فالأخيران كانا على مقدار كبير من المحبة والتكامل والاحترام. وكان ابن نفاع حاميا لمفضي وراعيا له. كما أنهما حين تخاصما حافظا على الاحترام المتبادل.

ويختلف هنا حال المتصدين للمرحلة الجديدة في موران عن حال من سبقهم في وادي العيون أو حران. فهم باتوا أكثر واقعية وفهما لاستحالة العودة بعقارب الساعة الى الوراء، وهم يبحثون عن أسلوب مقاومة مختلف ومتميز يخاطب الواقع الجديد بلغته. لكنهم مع ذلك، يسرون للعمل الاستفزازي والشتائم العلنية الموجهة الى رموز المرحلة الجديدة. فهذا شمران يصالح صالحا بعد أن قام الأخير بجولة في محيط فندق، كان السلطان يستقبل فيه وفدا أميركيا جاء بمعية الحكيم المحملجي وابنه لتوقيع صفقة سلاح مع السلطنة، حاملا طبله ضاربا عليه وصارخا بأعلى صوته: "بشر القاتل بالقتل والسارق بالفقر" (٥٨).

ثم يدخل شمران مرحلة جديدة في حياته، ويترافق ذلك مع ظهور بعض الرموز في سياق استكمال بناء شخصيته على امتداد رقعة الحدث. فعقاب صالح على فعلته وعلى شتائمه التي لا تتوقف ضد رموز النظام في موران لم يبق هذه المرة مؤجلا لأن الرجل مخبول، كما درجت العادة أن يقال، بل اتخذت الشرطة قرارا ببتر ذراعه في الساحة العامة للمدينة قرب المسجد. وحين علم شمران بالأمر، اندفع مثل المجنون نحو موقع الحدث، فقال "كل من كان في الساحة، ورأى شمران هائجا مثل جمل، إن يمام المسجد لم يكن يقل عنه هياجا. كان الحمام يطير فوق الرؤوس تماما، كما لم يفعل من قبل، ويصفق بأجنحته وتصدر منه أصوات وحدها كانت، وصوت شمران تملأ الساحة. وفي لحظة معينة، عندما انتزع شمران غترته وعقاله، وأخذ يلوح بهما، وكأنه يهزج أو يهد، كان اليمام فوق رأسه يشاركه، كان يسف ويحلق. أما حين اخترق شمران الناس مثل سهم، وأفسح له الكثيرون الطريق لا شعوريا، ووصل الى وسط الساحة، والتقى بصالح، فقد صرخ صرخة ملأت الأسماع: ديار الظالمين تاليها الخراب... وحنا واياهم والزمان طويل" (٥٩).

ها هو، إذن، اليمـــام الذي ظلل متعب الهذال ورافق مفضي الجدعان يظهر من جديد غاضبا مصفقا بأجنحته كما لم يفعل من قبل. وها هي اللحظة الأكثر توهجا وكثافة في ما تولده من أحاسـيس ومشاعر تترافق مع ظهور الرمز من جديد، بعد الواقعية التي احتلت الحدث طيلة وقوعه في موران، عنوان الاستقرار على حال الحقبة الجديدة.

ومع اشتداد الحملة القمعية ضد رافضي حقبة ما بعد النفط وممانعي الانخراط فيها، يسـجن ولدا شمران بتهم التآمر ضد النظام. ويحاول شمران مع أحد أصدقائه، عم حماد مسؤول المخابرات في موران كما سبقت الإشارة، إطلاق سراحهما. غير أن موقف حماد وما اشـتم فيه شمران من إهانة لكرامته يدفعه الى التخلي عن مسعاه. فيقول إنهما سيواسيان بعضهما في الحبس، وإن "الملك لله، ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم"(٦٠).

وفي "بادية الظلمات"، يطل شمران من جديد ثابتا في موقفه، مؤكدا أن ما من حاكم اعتبر بالذين سبقوه، وأن كل من توالى على السلطة لم يستفد من أخطاء أسلافه.

ومع عودة "بادية الظلمات" بالتاريخ الى الوراء بين الفينة والفينة بحثا في الذاكرة عما يفسر بعض المستجدات، نجد شمران أيضا في خبايا الذاكرة على موقفه، ساخرا من السـلطة ومرجعيتها ورافضا الانصياع للواقع رغم استيعابه له وفهمه استحالة مواجهته بأساليب الزمن الغابر. وإذ يسخر شمران من السلطان والأمراء ورجال الشرطة، فهو يسـخر أيضا من رجال الدين، فيقول في العجرمي مفتي السلطنة: "إذا أحد سأله عن اسم أبوه يصفن، وإذا سـأله نوبة ثانية يقول: خلني أتفطن. راح يوم وجا تاني صار مفتي السلطنة..." (٦١).

وبالعودة الى موران الجديدة، يعود بنا الحدث الى شـمران. فهو، كما الفقراء، رحل عن مدينته الى منطقة مجاورة لها اسمها الزرنوق "حيث بقي يتطلع كل صباح نحو الشرق، ويتسـاءل ما إذا حان الوقت لأن يفعل، مع الآخرين، شيئا. لا ينام قبل أن يعمر بندقيته، ولا يستيقظ إلا ويدفع يده الى جبينه يستطلع الأفق والرياح...." (٦٢). وهناك في الزرنوق، بلغه خبر إعدام "توأمه" صالح، فحزن عليه حزنا شديدا، وازدادت نفسه إصرارا على ضرورة القيام بعمل ما للاقتصاص من القتلة وإعادة تصويب الأمور...

ثم تراجع حضور شمران مع تسـارع الأحداث في موران، لكن ابتعاده لم يكن استسلاما ولا اختفاء غامضا بقدر ما كان انكفاء الى موقع آخر ربما تحضيرا لمواجهة مسـتقبلية قد تأتي وقد لا تأتي، إلا أن الاستعداد لها ظل قائما. فعشية اغتيال فنر، قام

شمران و"أطلق في الصـــباح المتأخر مشطا كاملا، أطلقه وهو يهزج... وقال: البارودة إذا فات وقت طويل وما لعلع صوتها تصدي، والفشك إذا فات عليه الوقت يبرد.... وأكد من كان برفقته أنهم رأوا في الأفق عددا من رفوف اليمام..."(٦٣).

ومن جديد ظهر اليمام، كنذير غضب يرافق الأحداث الأكثر أهمية ويصاحب الشخصيات الأكثر إقداما على التصدي.

لقد حافظ شمران على ثبات مبادئه وترك احتمالات المستقبل مفتوحة، وإن كانت غير مضمونة.

واسمه، شمران العتيبي، غني في ذاته غنى حامله. ففعل "شـــمر" يعني الإسراع أو الاختيال في المرور، كما أنه يعني الشدة والسخاء. والعتيبة، هي عتبات الموت أو الغليظ من الأرض أو منعطف الوادي. وشمران حمل الشدة في ثباته والسرعة في غضبه. كان غليظا كأرضه، حنونا كمنعطف الوادي، كريما سخيا على أبنائه وأصدقائه. أما اســـم "توأمه" صالح الرشدان أو صالح النذير وفيه من الصلاح والوعد الكثير، فيتناقض عن قصد مع ما اتفق على إشاعته حول شخصه من عته كونه "مجذوب موران"، إذ يأتي الاسم ليجسد حكمة ورجحانا وحسن قيم مضافة الى الوعد والنذير. وهي كانت بالفعل صفات تشكل خلفية غضبه وشتائمه ووعوده.

تشـــارك الأفراد الأربعة، متعب وابن نفاع ومفضي وشمران العتيبي الذين تميزوا في رفضهم ما حدث وحاولوا التصدي له، في العديد من أوجه الشبه.

فمتعب ومفضي كانا يخاطبان المستقبل بلغة الماضي: متعب على ناقته، ومفضي بأعشابه وعقاقيره "الطبية". لذا انتهيا الى "الأســـطرة"، وتحولا رمزين يظهران في ذروة انفعالات المقهورين الجماعية.

أما ابن نفاع وشمران، فبالرغم من تفاوت قوة ظهور كل منهما، إذ يبدو ابن نفاع ثانويا مقـــارنة بشمران، إلا أنهما كانا أكثر واقعية. فهما صعوبة المواجهة، وحضن كل منهما آخر يشبهه: فكان ابن نفاع حاضن مفضي، فيما كان شمران حاضن صالح. ثم مـــات مفضي ومات صالح. فبقي ابن نفاع ردها من الزمن قبل أن يموت بدوره بعد أن حاول حماية المقبرة القديمة في حران، في حين بقي شمران حاضرا على امتداد رقعة الحدث، يقاوم ضمن إمكانياته ويستمر ولو اضطر الى الرحيل.

وبهذا المعنى، كان شمران الأقوى والأثبت بين الأربعة. فحتى حين رحل مع الفقراء، لم يختف. ظل معمرا بندقيته، يطلق النـــار منها كي لا تفسد. وبقي اليمام يحلق فوقه مرافقا غضبه واستعداده الدائم للثأر.

يبقى أن الشخصيات الأربع المذكورة تفردت بجرأتها وإقدامها وسيرها عكس التيار. وراوح مصيرها بين الانكفاء والتحول الى رمز، أو الموت، أو الانتظار والجهوزية لمواجهة وإن أتت متأخرة.

وقد أراد منيف من خلال هذه الشخصيات أن يقول إن ثمة محـــاولات شعبية قامت للتصدي للاجتياح النفطي الأميركي، لكنها كانت أعجز من أن توقفه لعدم امتلاكها عدته ولعدم فهمها طبيعته.

لقد كانت هذه الشخصيات مضادة للحدث ولتـــأريخ هذا الحدث. فهي سعت الى كتابة السيرة التاريخية لصحرائها بعد زلزال النفط من خلال محاولات المقاومة التي قامت بها، لكنها لم تنجح، فاكتفت بالاحتجاج.

٢٠٢٠ الانبهار والتعامل والتسلط

لم يكن الوافدون الأميركيون وما أحدثوه من انقلاب عام في الحياة الصحراوية إثر اكتشاف النفط يفتقدون الى تغطية محلية وتواطؤ. فقد كان السلطان والأمراء أنفسهم مدخلهم الرئيسي الذي أمن لهم العون وأعطاهم حق التواجد وتنفيذ ما يرونه مناسبا من أجل التنقيب عن النفط. وهكذا تحولت أجهزة السلطة في الصحراء والدائرين في فلكها الى أدوات تغطية للأميركيين ووجودهم.

غير أن ذلك لم يكن كافيا لإتمام التحول. كان لا بد من إيجاد أفراد محليين يتعاملون مع الأميركيين ويؤمنون احتياجاتهم، أفراد قادرين على فرض سطوة أو هيبة على محيطهم ليسيروا الأمور بانتظام من دون اللجوء الدائم الى أجهزة السلطة. وقد وجد الاميركيون ضالتهم، فنسجوا العلاقات من خلال شركاتهم المنقبة عن النفط مع كل من اعتبروه جاهزا لتنفيذ مطالبهم، واستخدموه لتنفيذ الكثير من مآربهم.

وإذا كان هذا الأمر طبيعيا لجهة إمكانية وقوعه في أي مكان في العالم، فإنه جاء في الصحراء سريعا على عكس ما يتوقع من أبناء مكان يحتله الثبات والتكرار والترقب والتصدي للتغيير.

وفي ما يلي استعراض لأبرز المحاور المتعلقة بهذا الانقلاب من خلال شخصيات صحراوية كانت الأبرز في تعاونها مع الأميركيين والسلطة "المتجددة" في مراحلها الاولى خاصة.

٢٠٢٠١٠١ ابن الراشد: التواطؤ منذ النقطة الصفر

يظهر ابن الراشد في بدايات "التيه" وجيها من وجهاء "وادي العيون". فهو صاحب ضيافة، وداره تستقبل الوافدين الى الوادي. غير أن ظهوره يتزامن مع وصول الأجانب الذين أموا دارته ونزلوا عنده.

ومنذ لحظة لقائه بهؤلاء الأجانب واستضافته إياهم، تبرز ملامح شخصيته الانتهازية: "وابن الراشد الذي بدا شخصا مختلفا منذ أن وصل هؤلاء الأجانب، بالغ بالكرم والعنـــاية وإظهار هذا الكرم وهذه العناية... فقد كان في دخيلته يحس أن مغـــانم كبيرة يمكن أن تجنى من هؤلاء، ولذلك بالغ في كل شيء..." (٦٤).

ومع تبلور معالم المرحلة الجديدة، تحول سلوك ابن الراشد من المراهن على دور ما، الى المضطلع بهذا الدور، وسيطا في البداية لإرغام أبناء الوادي على بيع أراضيهم لشركة النفط الأميركية، ثم ملتزما تأمين اليد العاملة المحلية للشركة، مع ما يقتضيه هذا الأمر من وعود سخية وتهديدات خفية، كما كان الحال مع فواز بن متعب الهذال حين أقنعه بالعمل في الشركة. "لجأ ابن الراشـــد الى الإغراء والضغط، مع الكثير من الوعود، حتى اضطره للموافقة..." (٦٥). وابن الراشد هو بذلك أول المتعاونين مع الأميركيين، وأول مسهلي حضورهم ومؤمني طلباتهم. ولعل أول التغيرات الطارئة على الشخصيات الصحراوية برز في سلوكه. والى ما ذكر آنفا من قيامه بدور الوساطات، كان تعامله مع العمال العرب الذين أحضرهم مليئا بالتناقضات: فتارة تراه فوقيا قاســيا الى حد الإهانة والتهديد، وتارة أخرى يعود الى بداوته التي يتشارك في بســاطتها مع الجميع فيصبح مرحا وديعا. وبالمقابل كان أيضا تعامله مع الأميركيين ومرافقيهم مليئا بالارتباكات: فبعد أن كان مضيفهم وبوصلتهم في الوادي حيث يبسط وجاهته وكرمه البدوي، تحول في دور الوساطة الى "سمسار" يقبل سوء المعاملة والإذلال، متخليا عن الكرامة والعزة المعروفتين عند البدو، والوجاهة والكرم اللذين أظهرهما بنفسه تجاه ضيوفه سابقا.

فقد ابن الراشد إذن جزءا من خاصيته الصحراوية-البدوية، والتحق بنمط العلاقات الجديد الناشئ مع وصول الشركة الأميركية وأموالها، حيث برز الاسترضاء سمة أساسية. غير أن سلطة ابن الراشد وارتزاقه المالي من الشركة تعرضا لاهتزاز كبير مع موت أحد العمال خلال مهمة كلفه القيام بها. وبمحاولته إقفال ملف الحادثة من خلال إرساله بعض النقود مع شقيق العامل المتوفي الذي أصيب نتيجة الوفاة بحالة بله، دخل ابن الراشد مرحلة جديدة في حياته، إذ بات عرضة للمخاوف الدائمة والوساوس. فالبدو أقارب العامل المتوفي لا بد عائدون للثأر. وبالفعل، فقد وصل حران أحدهم وراح يجول فيها سائلا عن ابن الراشد. فطلب ابن الراشد من مسؤول الشرطة جوهر سجنه!

ولما بلغ الأمر الأمير استدعى البدوي وابن الراشد وطلب إليهما تسوية الأمور. فاتفق على ضرورة أن يدفع ابن الراشد تعويضا لأهل القتيل، إذ إن الشركة الأميركية رفضت القيام بذلك. وبدأت المفاوضات تدور حول قيمة التعويض، وسط انهيار ابن الراشد وبكائه "في محاولة لإثبات عجزه عن تأمين المال" (٦٦). ولما رضخ أخيرا، كان البدوي قد رحل رافضا تقاضي أي مبلغ، واعدا بالعودة والثأر من القتلة.

وقد أدى هذا التهديد الى تحويل ابن الراشد إنسانا آخر. فقد بات يعيش حالة من الرعب، ولا يظهر إلا نادرا. وإذا ما ظهر، فبرفقة "اثنين أو ثلاثة من جماعته. كان يبدو شديد القلق، وقد تغير شكله كثيرا: حركته سريعة، وعيناه شديدتا التنبه والفزع..."(٦٧). وباتت عبارة البدوي حين ينادى بها تدفعه الى نوبات من الجنون وإطلاق النار والشعور بأن أجله قد حان. وكانت هذه النوبات تسلي الجميع إذ يعتبرونها عقابا له على كل ما فعله منذ وصول الأجانب الأميركيين الى الصحراء وتعامله معهم وتأمينه العمال لشركتهم. حتى إن الصغار باتوا أثناء مرورهم يهتفون "البدوي" في محاولة لإثارته وجني بعض الضحكات من رعبه.

والدلالات في تحول لفظة "البدوي" الى مصدر رعب معبرة. فالبدوي هو رمز الصحراوي الأصيل، وهو الشبيه بمتعب الهذال. وربما كان في هذا ما يفسر تداول الناس خبر تجوال متعب برفقة البدوي عم القتيل على القبائل تأليبا لها ودعوة للثأر والقتال. وفي البدوي أيضا الكثير من بكارة الصحراء المتعرضة للغزو. وهو بذلك رمز للانتقام من أناس مثل ابن الراشد ارتدوا أساسا عن هويتهم إرضاء لجشعهم.

ووسط عيشه في حالة الانهيـــار تلك، يموت ابن الراشد. وتتولد عن موته حالة حزن شديد عند أكثر أهل حران الذين شعروا أنه كان ضحية مثلهم للشـــركة من ناحية، وللطمع وحب الثروة من ناحية ثانية. كما اعتبروا أنفسهم مسؤولين عن مآله لعدم إشفاقهم عليه وتركه في دوامة الرعب والخوف والانهيارات المستمرة.

ولعل في تشييعه الذي شاركت فيه كل حران فعل ندامة واستغفار وتراجع عن اضطهاده. فذاكرة أهل حران الجماعية غفرت لابن الراشـــد أفعاله وتضامنت معه، وسط شعور بأن الأميركيين وحدهم يقفون وراء المصائب والويلات التي حلت بهم.

واسم ابن الراشد يمكن أن يؤول على نحو يختلف مع ما ذهبت إليه في تأويلي معاني اسم "صالح الرشدان". فهو هنا يعبر عن كون حامله صاحب رشـــد ومنطق، في أشارة غير مباشرة الى الســـلم القيمي الجديد الذي تكرس في الصحراء، حيث القبول بالواقع الجديد والتعامل معه من منطلق المســـاهمة فيه رشد وواقعية حكيمة، تناقض الطيش الذي يمكن للرفض والممانعة تجسيده.

٢٠٢٠٢ جوهر: شرطي السجن الأول

تعبر شـــخصية جوهر، على الرغم من ثانويتها في الرواية، عن مستجدات في السلوك والقيم في الحياة الصحراوية.

فجوهر انخرط في مهنة لم تكن موجودة في الصحراء قبل قيام المملكة النفطية، وهي مهنة الشرطي، فهو أول شرطي في "حران" التي انتقل والأمير خالد للعيش فيها. ولأنها مهنة جديدة لم تمارس من قبل، ولأن فيها تعبيرا عن سلطة تجاه الآخرين، دفعت هذه المهنة جوهرا الى سلوكيات لم يفهم أكثر الناس بداية ما إذا كانت مزاحا أم جدا: "لبس جوهر الملابس العسكرية... بدا شديد الغرابة، حتى ظن الكثيرون أن الأمر مجرد مزحة من المزحات...." (٦٨).

غير أن هذه السلوكيات سرعان ما تحولت الى ما يشبه الجنون. فقد بدأ جوهر يمارس سلطة على الناس لم يألفوها، بدءا باعتقال البدوي الذي قدم للثأر من ابن الراشد، مرورا بسجن مفضي وضربه بتهمة أنه "مشرد"، وصولا الى نمط جديد من المفردات والممارسات.

فجوهر بات بعد تعيينه في الشرطة يحتقر البدو وكأنه انتقل الى مرحلة أعلى في سلم البشر. وبات حين ينادي على شخص بقوله "يا بدوي"، كمن يخاطب بفوقية واحتقار شخصا هامشـــيا. وترجم هذا الأسلوب ممارسة بعمليـــات قمع لكل معترض على قرارات الشركة النفطية في حران، أو "السلطة الرسمية" التي يمثلها الأمير؛ في حين أن العـــلاقة التي كانت تحكم أي خلاف بين الناس أو بينهم وبين الإمارة في مرحلة ما قبل النفط كانت تحل بزيارات أو تنازلات دون الحاجة الى وسطاء أو قوى قمع.

وجوهر لم يصدق أو لم يستوعب معنى قدرته المستجدة على احتجاز الناس أو ضربهم أو ممارسة أشكال السلطة عليهم لمجرد أنه شرطي يلبس زيا، وأصيب نتيجة ذلك بما يشبه الجنون. فها هو يقول لعســـكره: "إذا ضحكت بوجه البدوي، إذا قلت للواحد منهم: مرحبا يا ولد ظن أنك تخاف منه. أولاد الحرام البدو ما ينعطون وجه، مثل المرا والولد، ولازم تنكسر رؤوسهم... أريدكم تعلموهم الموت الأحمر شلون يكون. كسروا عظامهم. إلعنوا والد والديهم ولا ترحموهم". والعســـكر الذين كانوا يتفاجأون بما يقوله قائدهم "لم يكونوا يعرفون عن أي شيء يتحدث، لكنهم كانوا يحســـون أن مهمتهم كبيرة وخطيرة، وأنه يعتمد عليهم الى أقصى حد، ويثق بهم كل الثقة... كانوا مثل الذئاب الجائعة. كانوا يمتلؤون حقدا ورغبة في أن يضربوا، في أن يدمروا" (٦٩).

وكان لهذا الاستسهال في ممارسة القمع واستخدام العنف أن دفع جوهرا الى حال من المرض والهوس والرغبة في إراقة الدم. فعند انتفاضة عمال الشركة، اغتبط جوهر رغم قلقه الداخلي لأن دورا ما سيطلب منه تنفيذه: "... كان يتصور العمال وأهل حران يتقدمون نحو المعسكر، وتتراءى له رجاله الذين أرسلهم في الليل يصطدمون مع المتظاهرين فتسيل الدماء. وتصور أيضا كيف أن الأميركان والأمير وكل أهل حران يتوجهون إليه، يناشدونه، يطلبون منه أن يضع حدا لهذا الذي يجري..." (٧٠).

فقد جوهر إذن رشده وبات تجسيدا للإنسان الذي بهرته المتغيرات وسلبته عقله وأخرجت ما عنده من عقد. لم يقو على اســـتيعاب تحوله الى صاحب مسؤولية في المدينة حيث يعيش، فعمته خفته، ودفعته الى الجنون الكامل.

ومع مرور الوقت، ونشوء أجهزة شرطة وأمن وقمع جديدة، تهمش دور جوهر السلطوي، غير أنه تحول "وسيطا" قمعيا يكلف بمهام من نوع إرغام الناس على بيع أراضيهم الى المســـتثمرين الجدد أو الأمراء أو أصحاب النفوذ. وفي ذلك دلالة على آفة

إضافية أصابت العقلية في تلك المرحلة، وهي القدرة على القيام بأي شيء بغض النظر عن الحق طالما أن ثمة سلطة تحمي. سلطة تغير مفهوم دورها من حيث الممارسة فباتت قامعة، ولم تعد العلاقة من خلالها بين الحاكم والمحكوم مستندة الى نوع من المونة والاحترام بل الى هيكلية صارمة وأدوات انضباط قاسية.

يمكن القول إن شخصية جوهر تمثل نموذجا طارئا في مرحلة ما بعد النفط وفي دولتها في الصحراء العربية.

٢٠٢٠٣٠ *العجرمي: بين الدين والدنيا*

لا يمكن اعتبار دور العجرمي مستجدا في السياق التاريخي للمجتمع الصحراوي. غير أن المتغير كان شكل الدور وسبل المحافظة عليه.

يطل العجرمي في "تقاسيم الليل والنهار" لحظة تلقيه سيلا من الهدايا من السلطان: "بعث السلطان الى العجرمي هدايا عديدة، مصحفا مذهبا... وفرسا مشهورة... ولم ينس أن يبعث أيضا مبلغا من المال" (٧١). وعلى هذه الخلفية، يستنتج أن الشيخ العجرمي كان منذ البداية يقبل الأعطيات من السلطان الحريص على إبقائه الى جانبه وشراء موقفه من خلال هذه الأعطيات.

والى كونه يمارس سلطاته الدينية ويرفض الاعتراض أو التشكيك بأي قرار يتخذه: "حنا أهل الدين وأهل الشرع، ونعرف اللي يجوز واللي ما يجوز..." (٧٢)، كان العجرمي يطلب مرافقة أمنية وحراسة خوفا من محاولات اغتيال يشعر بخطر التعرض لها: "... أصبح العجرمي، أينما سار، وأينما حل، يسير معه، ويكون حوله، مجموعة من الحرس المدججين، الأمر الذي أثار الكثير من السخرية والتعليقات" (٧٣). وفي هذا السلوك بالذات جدة فريدة، هي بالضبط ما ولد سخرية واستغرابا عند الناس الذين لم يألفوا يوما مرافقة لرجل دين أو لممثل سلطة، ذلك أن السلطات جميعها عندهم لم تكن مرتبطة بهموم أمنية أو أشكال هرمية الى هذا الحد.

وبالرغم من المظاهر والتبدلات جميعا، لم يحظ العجرمي باحترام الناس وطاعتهم، وظلت السخرية الشعبية تطاله وتنال من رجاحة عقله. فهذا شمران يقول فيه وسط تضاحك الموجودين: "إذا أحد سأله عن اسم أبوه يصفن، وإذا سأله نوبة ثانية يقول: خلني أتفطن، راح يوم وجا ثاني صار مفتي السلطنة..." (٧٤)

وبالرغم من سلطته المعنوية–الدينية، فإن العجرمي لا يأخذ أي موقف من الخلافات الناشئة بين الأمراء والحكام. فهدفه المحافظة على العلاقة الجيدة بالسلطة، أي سلطة، بعيدا عن الالتزام بموقف أو مبدأ، لأن رضا السلطة السياسسة عليه بات همه بعد ان كانت تلك السلطة تبحث عن رضاه. وقد أعمته هدايا السـلاطين الباحثين عن إبعاده عن السياسة وشؤون الحكم، وبات يتبجح بها ويتفاخر بإظهارها للناس: "كان بوده أن يركب تلك السيارة بالذات، لكي يراه الناس..." (٧٥)

تظهر شخصية العجرمي، وتحديدا لأنه رجل دين، مدى قدرة المـال الذي تمتعت به سلطات ما بعد النفط على شراء صمت الناس وتراكضهم من أجل إرضاء الحاكم طمعا في كرمه وأعطياته. وفي ذلك شكل من أشكال الاسـتسلام اللذيذ للثروة الهـابطة، بغض النظر عن مفاعيلها الأخرى المفترض تصنيفها منافية للدين وما فيه من تواضع ورفض للبذخ والبطر.

أما اسم العجرمي فيشير الى الرجل الذي يسرع في مشيه. وفي هذا المعنى بعض الشبه بطبع العجرمي المسرع دائما والمتهرب دوما من أي التزام، على عكس المعنى المستقى من اسم شمران حيث السرعة كانت للمواجهة لا للتهرب.

ليـس من قبيل المصادفة أن يختار منيف النماذج التي تمثل دعائم النظام المستجد منذ دخول الأميركيين الصحراء متعهد أعمال (إبن الراشد المؤسس لفئة المقاولين التي ستظهر فيما بعد)، ورجل شرطة (جوهر الذي سيصبح من بعد رجل أمن ومخابرات)، ورجل دين (العجرمي صاحب الوظيفة المحددة التي أضيف إليها عنصر المال على نحو فاعل). فهذه النماذج منها ما تأسس في مرحلة اكتشاف النفط ومنها ما كان قائما منذ زمن قديم، ولكنه اكتسب سلوكيات جديدة. وهي جميعها تمثل مصالح اقتصادية ناشئة لعبت دورا أساسيا في حماية السلطة النفطية ومؤسساتها فيما بعد.

٠٣٠٢ نهاية الملك الصحراوي

سوف أعرض في هذه الفقرة لما أصاب السلطة في السلطنة الصحراوية من تبدلات في الحقبات الأولى من تركزها، أي خلال انتقالها من بداوة ما قبل النفط الى بداوة ما بعده.

ومن المفيد قبل دراسة شخصيتي السلطانين خريبط وخزعل أن نلقي نظرة على الإشارات التي وردت في الجزء الأول من الخماسية "التيه" حول ما أصاب بعض حكام الصحراء من جنون نتيجة استحالة استيعابهم لما جرى في مناطق حكمهم.

فقد جن الأمير خالد (أمير حران) من الهدايا التي وصلته مع دخول الأميركيين وتنقيبهم عن النفط، وما رافق ذلك من وصول قوم من كل حدب وصوب. لم تبهره هذه الهدايا (راديو ومنظار وسماعة طبية ومذياع) فحسب، بل دفعته الى الهلوسة ("شاهدوا الأمير في إحدى السيارات. كان يضع في رقبته السماعة الطبية ويحمل بيده قطعة حديد سوداء لم يتبينوا ماهيتها أو لأي غرض تستعمل، وهي تشبه المهباش أو الملعقة الكبيرة، وكان الأمير يقرب من فمه هذه الحديدة ويشـــتم... رأوا الأمير يضع الســـماعة الطبية في رقبته، وقد رفع يده بمرح ليرد التحية..." (٧٦))، واضطرت السلطان الى عزله ("عند الظهر صدر عن ديوان الإمارة البلاغ القصير التالي: ... غادر صاحب السمو الأمير خالد حران صباح هذا اليوم للعلاج..." (٧٧)).

مآل الأمير خالد في "التيه" كان منذ البداية مؤشـــرا الى استحالة تعايش البداوة البكر مع المتغيرات العاصفة ومع الوافدين وما سيحملونه معهم.

فالبحث إذن في مصير ســـلطاني الصحراء خريبط وخزعل ينطلق من قاعدة استحـــالة التوفيق بين ما كان وما صار. وقد استثنيت السلطان الثالث فنر من بحثي هنا، ذلك أنه سافر واختلط بأقوام متعددين مما أبعده نسبيا عن الجوهر الصحراوي الخام. وسأعرض لشخصيته في الفصل الخامس من هذه الأطروحة.

٢٠٣٠١٠ السلطان خريبط: مؤسس موران النفط

يذكر السلطان خريبط لأول مرة في ســـياق "مدن الملح" لحظة وفاته في مستهل الجزء الثاني "الأخدود". كانت الوفود تتوالى للتعزية به، والحديث عن خلفه يتصـــاعد الى أن يتبين أن وريثه هو الأمير خزعل.

ثم يغيب ذكره، فلا يظهر من جديد إلا في الجزء الثالث الاعتراضي، "تقاسيم الليل والنهار"، المخصص لعملية الفلاش-باك الهادفة الى عرض المراحل التاريخية التي مرت بها الجزيرة العربية لغاية تشكل السلطنة الهديبية (أو الدولة المورانية) التي أسسها خريبط نفسه على أرضها.

ففي هذا الجزء، يظهر خريبط خلال حروبه ومعاركه في "الداخل" (في أوساط عائلته وأقاربه وعشيرته) وفي "الخـــارج" (ضد ملوك باقي مناطق الجزيرة العربية وأمرائها)، وتتبدى سياساته وأساليبه في قيادة قومه، كما تتبدى علاقاته بالديبلوماسي الانكليزي هاملتون (الذي أسماه "الصاحب") وأثر ذلك على ترسيم حدود الممالك والدول فوق رمال الصحراء.

وخريبط بدوي يتمتع بالذكاء الفطري الى أبعد الحدود. مزواج صاهر قبائل عدة وجمعها حوله، وتعلم مع الوقت سبل تقدير الظروف والتخلص من خصومه وإضعافهم. وقد جعل خريبط بمساعدة هاملتون يضرب كل إمارة أو دويلة محيطة بمناطق سيطرته على حدة، ويضمها إليه مجندا قبائلها واعدا إياها بالغنائم والأموال.

وفي إدارة المعركة، كان خريبط حريصا على إرضاء جميع القادة العسكريين والوجهاء المرموقين، موازنا في ما بينهم، وســـاعيا في الوقت نفسه الى إبقائهم رقباء بعضهم على بعض لمنع أي منهم من اكتساب حجم أكبر من الذي يسمح به. فها هو مثلا يعطي تعليمات متناقضة حول المهام نفسها الى كل من ابنه خزعل وعمه دحيم وأحد قادة جيوشه ابن مياح. يقول لخزعل "أنت في الحويزة الســـلطان، أنت اللي تأمر وتحكم، ويلزم الكل يطيعك؛ حتى عمي دحيم أنت فوقه... وابن مياح إذا شاخ، إذا قال يصير وما يصير، تكســـر رقبته..."، ويقول لعمه عن خزعل "وأنتم فوق رأسه تشورون عليه، وأنا وصيته أنه ما يسوي شي إلا بشوركم ومعرفتكم..."، ولابن مياح عنه "وخزعل مثل ولدكم تشـــورون عليه وتوصونه..." (٧٨)

وقد ظل خريبط، رغم اتكاله على الدعم الانكليزي، محـــافظا على الحذر البدوي وعلى الشك حتى في الأقربين إليه. وهو مفطور على التحسب للغدر وللتبدل في أي لحظة.

فمع تعاظم المشاكل من حوله، أحس أن ثمة ما لا يطمئن: "فالمشاكل التي تعاني منها السلطنة كثيرة ومتداخلة. والانكليز ليسوا بعيدين عن معظم هذه المشـــاكل، بل أكثر من ذلك، كان يحس أنهم وراءها. والآن لا يعرف كيف يفاوضهم، أو كيف يتفق معهم"(٧٩). وقد أدى حذره منهم ومما قد يحيكونه ضده الى قبوله شـــروطهم لحظة الترسيم النهائي للحدود بين مملكته وجيرانها رغم إحســـاسه بإجحاف لحق بتطلعاته التوسعية.

ويظهر السلطان خريبط على الدوام حرصا على إرضاء رجل الدين، العجرمي، من خلال مصاهرته وإرسال الأعطيـــات والهدايا له، استرضاء لموقعه الديني في فترة تكون الســـلطنة وحاجتها الى مباركة ذوي النفوذ والمقام جميعا. وهذا الاسترضاء سيصبح فيما بعد شكليا لأن السلطة الجديدة كانت قد تجاوزت خطر انفضاضها، وخاصة بعد ظهور النفط وتدفق ثرواته.

وفي "بادية الظلمات" يطل السلطان خريبط في سلطنته بعد أن اســـتتبت له أمور الحكم ورست الحدود على ما رست عليه، وسمى ابنه خزعل خليفة له.

واللافت عامة في سيرة خريبط (الذي لا معنى لاسمه غير الاستخدام العامي ومفاده الخبط على غير هدى) أن اكتشاف النفط تم في عهده، وأن التفوق الأميركي على الحضور الانكليزي ظهر أيضا في عهده. غير أن التغيير الجذري في الحياة العامة الناجم عن اكتشاف النفط والسيطرة الأميركية لم يتبد إلا بعد وفاته.

لقد جسد خريبط صورة السلطان الذي يحسن التعامل مع ضعفه بمكر ودهاء. لكنه كان سلطانا غير قادر على إدارة شؤون تتخطى المصالح الآنية لحكمه فتؤسس لخلف يكمل من بعده خطواته التأسيسية فيبني الدولة الحقيقية. لذلك، شكل موته موتا للتأسيس واستمرارا لسيرة البداوة عينها إنما في ظروف مختلفة.

٢٠٣٠٢ . السلطان خزعل: سقوط الصحراء

يطل خزعل للمرة الأولى في "التيه"، وكان بعد أميرا، عند رعاية حفل افتتاح أول خط أنابيب لنقل النفط في مدينة حران. ويأتي وصف حضوره محـــايدا غير مثير لأي نوع من التساؤلات الخاصة، إذ هو يراقب ما يجري حوله ويتقبل التهاني ويســـتمع الى كلمات الترحيب، ثم يتلقى هدية من الحكيم صبحي المحملجي، فيبدي إعجابه بها (٨٠).

وفي "الأخدود"، يحتل الأمير خزعل حيزا رئيســـا على امتداد الأحداث والتطورات، إذ بات هو السلطان بعد وفاة والده، وباتت مقاليد الحكم جميعها في يديه. ونقع على وصف دقيق لهذا الرجل، في شكله الخارجي المرعب بطوله الفارع وضخامته وشكل عينيه ولحيته وضحكته المجلجلة وأسنانه الكبيرة التي تشبه أسنان الحصان.

وخزعل مفتون بالجنس مزواج تخطى أباه في عدد الزوجـــات، يأكل بنهم، ويتمتع بتلقي الإطراء وسمـــاع القصيد. ثقافته معدومة، ولم يرث دهاء والده، بل جل ما لديه

طبيعة بدوية حادة في تجلياتها المسـلكية تجاه المكان حيث يقيم (القصر) والهدايا التي يتلقى وإنفاق المال دون معرفة قيمته.

وخزعل، الى ذلك، نزق في تصرفـاته يتأثر بمن يقربهم إليه، ويخاف دائما من أي خطوة أو تبديل أو تغيير. ذهل بما أحاطه به الحكيم من هدايا وأفكار وتكريم، فقربه إليه وجعله مؤتمنـا على القضايا الكبيرة والصغيرة في القصر والمملكة. وقد أدى هذا الأمر الى إثارة الكثيرين من أشـقائه وأعوانه ضده وضد طرق تعاطيه إدارة شؤون الحكم.

وخزعل لم يغادر الصحراء يوما، ولم يختلط بأقوام غير قومه. لذلك لم تتكون عنده أي ثقافة أو قدرة على التواصل الناجح مع الآخرين.

وفي "تقاسيم الليل والنهار"، حيث الغوص في التـاريخ، يبدو جليا أن خزعل لم يكن المفضل لدى والده السـلطان خريبط. فالأخير كان يفضل الأمير فنر. ومرد هذا التفضيل أن سلوك خزعل عند تحمل المسؤولية خلال الحروب والحملات كان أقرب الى الطيش والحمق واستعراض القوة، في حين كان فنر متزنا وقادرا على التأثير في الجميع. غير أن حدثا أساسيا وضع خزعل في مرتبة متقدمة. وهذا الحدث كان محاولة اغتيال والده السلطان في المسجد، إذ كان هو من تصدى للمحاولة وذاد عن والده وحماه ببنيانه الضخم، بينما لم يتمكن فنر من القيام بشيء من هذا القبيل. فكان أن فضل السلطان خريبط في اختيار ولي العهد، أي السلطان الجديد، شجاعة خزعل وقوته على حكمة أخيه فنر وثقافته. وبذلك، تمكن خزعل من وراثة والده.

وبالعودة الى مساره في السلطة، حاول خزعل إرضاء الجميع من حوله بتوزيع الأموال عليهم. واعتقد أن هندسة الحكيم المحملجي لسياسات السلطنة وتأمينه من خلال ولده غزوان تواصلا مع الولايات المتحدة من أجل تأمين السلاح والعتاد وتدريب مسؤولي الأمن فضلا عن إنشاء الصحف والمنشـورات الدورية والإتيان بالصحافيين والمستشارين والأعوان، ستؤمن له ديمومة في الحكم وقوة تعينه على التصدي لكل طامع به. غير أن ذلك لم يكن الواقع. فعلى الأرض، كان ثمة تحضيرات لخلعه.

وما إن قرر الزواج من سلمى ابنة المحملجي وأقام لها عرسا ضخما، ثم سافر وإياها الى بادن بادن في ألمـانيا، حتى نظم انقلاب ضده وجرت تنحيته، وتربع شقيقه فنر على عرش السلطنة. ولعل بيان تنحيته يعبر عن نظرة من عايشه إليه والى مسـلكه

في إدارة مقدرات الدولة: "بعدما آلت أوضاع البلاد الى الحالة المؤسفة الراهنة، والتي تمثلت بالاسراف والإهمـــال والعجز والابتعاد عن الطريق السوي، وبعدما استعرض أصحاب السمو أبناء المغفور له السلطان خريبط هذه الأوضاع، فقد قرروا بالاجماع تنحية السلطان خزعل وتسمية الأمير فنر سلطانا لموران" (٨١).

ومن بعد التنحية، يأخذ التعاطي مع شـــخصية خزعل منحى جديدا. فقد بات سلطانا مخلوعا يعاني النفي والغربة والحسرة والقلق والغضب كما يصورها الجزء الرابع، "المنبت". وحاله النفسية لا تستقر على وضع: فتأرجحه يستمر بين حال وآخر تبعا لما يتوفر لديه من أخبار من موران. كما أن عوامل الطقس والإقامة وخلافات الحاشية المحيطة به، وعودة بعضها الى موران لإعلان الولاء للســـلطان الجديد أدت الى انهياره التدريجي. وكان لزيارة عدد من أشقائه وأولاده وعدلة زوجته الأولى والأقرب إليه والأكثر قدرة على تحريك مشاعره أن دفعته لتطليق ابنة الحكيم وإهمال هذا الأخير ودفعه الى الرحيل. لقد أطبق المحيطون بخزعل على إيغار صدره ضد مستشاره السابق وعلى تحميله مسؤولية التدهور الذي آلت إليه الأمور.

تدهور خزعل في صحته وفي معنوياته وحيدا، ودخل مرحلة النســـيان الى أن أســـلم الروح ونقل جثمانه الى موران على الطائرة نفسها التي كانت أقلته بعد عرسه من موران الى بادن بادن (٨٢).

واســـمه (الخزعل أو الضبع أو الأعرج في مشيه أو الثقيل الهمة) تجسد في شخصه. فذكاؤه المحدود ووصف سلوكه اليومي وشكله الخارجي وثقل وزنه علامات فارقة في شخصه، اختصرها الإسم وعبر عنها.

ختاما، لا بد من القول أن ســـلطانا مثل خزعل لم يكن ليستطيع بأي حال من الأحوال أن يصمد في السلطة ويدير دفتها في مرحلة ما بعد النفط. فقد ولدت هيكلية هرمية واضحة وأجهزة وأموال ومصالح واستثمارات وتجارة وصفقات أسلحة وقصور وطائرات بحاجة جميعها لإدارة، وهي أمور لم يكن عقله البدوي غير المعرض لأي احتكاك سابق مع المستجدات قادرا على التعاطي السليم معها. وبهذا المعنى، كانت تنحيته–هزيمته تنحية للبداوة الصرف التي جسدها، وللماضي الذي كان يسمح لعقلية مثل عقليته بأن تدير شؤون إمارة بكامل أوجه حياتها.

لعل عبد الرحمن منيف أراد في تصويره شـــخصيتي السلطانين خريبط وخزعل تقديم ما سأسميه "التاريخ الموازي" وأعرض له في الخلاصة. فمن خلال سيرتهما يناقض منيف التاريخ الرسمي الذي يتناول الحدث انطلاقا من قراءة "السلطات" له. فهو يناقضه بشخصياته نفسها، أي شخصيات السلاطين، مظهرا البعد غير المتداول لعلاقاتهم ومسؤولياتهم وأعمالهم. وهو بذلك يقدم شهادة من زاويته المضادة للحدث في جزيرة العرب في تلك المرحلة...

تعبر الشخصيات الصحراوية التي تناولناها، أكانت من الفئة الرافضة والمقاومة أو من الفئة المتعاملة والمتواطئة أو من الفئة الحاكمة، عن حجم الضياع الذي أصاب المجتمع الصحراوي عامة نتيجة الحدث النفطي. فمصائرها لم تكن متباعدة، على عكس مواقفها، وعسر هضمها للتحولات والتبدلات كان مشتركا في أكثر الأحيان.
وتجسد هذه الشخصيات على اختلافها الواقع الاجتماعي في الجزيرة العربية أواسط هذا القرن كما رآه منيف.

فسمة ذلك المجتمع الرئيسة كانت العجز المغلف فخامة وثروة وتفاؤلا. والنتيجة الحتمية لهذا العجز كانت تبلور القرار السياسي الفعلي للمجتمع خارجه، وإدارة ثرواته من قبل شركات النفط الأميركية والوافدين الأجانب إليه للعمل والارتزاق في الميادين الجديدة التي وفرها.

ولعل في الضياع العام الذي أصاب ذلك المجتمع مايعلل اختيار عنوان الجزء الأول والمؤسس للخماسية، "التيه".

الفصل الثالث

الوافدون الى الصحراء من المحيط العربي:

بين التكيف والخيبة

لم تبق الصحراء العربية بعد اكتشاف النفط فيها "جزيرة" تعزلها الرمال عن محيطها. فقد وفد إليها ناس من مختلف المناطق بحثا عن إمكانات الربح المادي الوفير والسريع وعن الأدوار النجومية "السهلة".

والصحراء كانت بالنسبة الى أكثر الوافدين من محيطها الجغرافي، من البلاد العربية خاصة، المكان النموذجي حيث تمكن صناعة الثروة من دون تعب وحيث يمكن التأثير على المسؤولين وإبهارهم بمهارات لا يعرفون منها شيئا. ذلك أن المجتمعات المحيطة بالصحراء كانت أعرق منها في ميادين العلم والعمل والإدارة والسياسة والاقتصاد وغيرها من مقتضيات الحياة الحديثة نظرا لتماسها القديم مع الغرب ولتواصلها مع العالم ولبيئتها وتركيبتها العمرانية.

وأبناء الصحراء كانوا في المقابل بحاجة ماسة الى خدمات الوافدين إليهم لإدارة مرافقهم الحياتية المستجدة منذ اكتشاف النفط وهبوط الثروة عليهم. وكانوا أيضا يستسهلون دفع الأموال والتمتع من خلالها بنعم الحياة والشعور بالفوقية وتملك السلطة، ولو كانت زائفة.

ونتيجة لهذه الظروف المستجدة، نشأت بين الطرفين علاقة سمتها المنفعة المتبادلة الممزوجة بالأحلام والاستغلال المتبادل. كما لازمت هذه العلاقة ملامح انفصام وطلاق بين ظاهر الأمور، حيث التودد والنجاح في الأعمال يقابله كرم وجود وأعطيات غير مدروسة، وبين باطنها، حيث لم تكن المشاعر الحقيقية تخلو من احتقار وازدراء (يعبر عنهما الوافدون من خلال نظرتهم لأهل الصحراء كبدو متخلفين لا يفقهون شيئا) وحقد وشعور بالتعرض للنهب (يعبر عنه أهل الصحراء من خلال تمييزهم بين الغريب والأصيل الذي وحده يسعى بتفان لتطوير بلاده). ويعبر الشيخ مالك الفريح، أمين صندوق سلطان موران، في "الأخدود" عن حقيقة هذا الوضع حين يقول: "إن موران تتعرض الى

مؤامرة، خاصة من الغرباء الذين هجموا هجوم الجراد، ولذلك يجب أن نفتح عيوننا، أن نحرص على كل قرش، لأنه إذا خلص مالنا طفيت نارنا وما أحد يتذكرنا..." (١)

وسأحاول في هذا الفصل أن أرصد عددا من الشخصيات الوافدة الى الصحراء من محيطها العربي للوقوف على مدى النجاح الذي حققوه وعلى الأدوار التي جسدوها في تعاطيهم مع المجتمع المضيف.

٣٠١٠ الانتهازية والنجاح

تفاوتت بتفاوت المراحل والحقبات الزمنية أساليب الوافدين في التعاطي المباشر مع المجتمع الجديد الذي استقبلهم. غير أن المبدأ المعتمد لتحصيل النجاح ومراكمة الأموال وتوسيع الأعمال بقي واحدا: التودد الى "السلطة الصحراوية" والتقرب الى السلطان والأمراء، أو الفوز بصفقة تفتح باب الاستثمار وتدخل شريكا محليا في الأرباح لضمان الاستمرار.

غير أن السبل لبلوغ ذلك لم تكن واحدة، كما أن الوظائف اختلفت. وفي ما يلي عرض لهذه السبل والوظائف من خلال ست شخصيات برزت في الخماسية.

٣٠١٠١٠ حسن رضائي: سحر الدخول الأول

تمثل شخصية حسن رضائي نموذجا خاصا في الخماسية، وذلك على الرغم من عدم احتلالها مركز صدارة بين الشخصيات الرئيسة في "مدن الملح". فرضائي، الذي كان أول ظهوره في "التيه"، هو أول رجل أعمال وصل حران بحثا عن سبل الاستثمار والعمل فيها. وما حمله معه في رحلاته الأولى وأهداه الى الأمير خالد شكل منعطفا في مسار التحولات نتيجة مس الجنون الذي أصاب الأمير والافتتان الذي وقع تحت تأثيره. وقد أعطى ذلك رضائيا زخما ودفعا استثنائيين، ما لبث أن فقدهما عند تحوله في ما بعد الى مجرد واحد من المتنافسين على الصفقات والتعهدات والمناصب.

وحسن رضائي، الذي دخل حران بأبهة وفخامة، لم يكن أحد يعرفه من قبل. فهو على ما يبدو تاجر جال في العديد من البلدان حيث جمع ثروة لا بأس بها، وقدم حران عارضا مساعدته وطامحا الى استثمار ثروته وتوسيعها.

وفور وصوله، توجه لزيارة الأمير حاملا معه أولى هداياه: منظار مقرب أدهش الأمير وأفرحه قبل أن يصيبه بحالة من الذهول أفقدته رشده؛ إذ راح يستخدم المنظار طيلة الوقت، إن للمسافات القصيرة خلال الاجتماعات داخل الغرف أو للمسـافات البعيدة بحثا عن النساء في معسكرات الشركة الأميركية وبواخرها الراسية في البحر.

وبعودة رضائي مرة ثانية بعد أسابيع الى حران، جلب معه هذه المرة هدية تخطى وقعها وقع المنظار بما لا يقاس، وأحدثت حالة من الرعب والانبهار تحولت من جديد ذهولا وفرحا.فقد جلب جهاز راديو وشغله أمام الأمير ومجلسه، مما أصاب ا لأمير بالارتباك، في حين اختبأ أحد رجاله خلف آخرين، وجعل الباقون يتفكرون في الجن المقيم داخل ذلك الصندوق الأسود (٢).

وتسبب رضائي بتغير سلوك الأمير ونائبه وفي اهتمـاماتهما وملئهما لأوقاتهما حتى إنه غير في مواعيد نومهما واستيقاظهما واسـتقبالاتهما، لأنهما ظلا يتنقلان طيلة الوقت بين الشرفة، حيث ينبطحان ويتبادلان استخدام المنظار، وغرفة الدار، حيث يشعلان الراديو ويقلبان المحطات مستمعين الى كل ما يصادفهما من برامج.

وفي زيارته التالية، حمل حسن رضائي هدية جديدة الى الأمير هي عبارة عن سماعة طبية للقلب. وشرح رضائي للأمير طريقة استعمالها وأهميتها وفائدتها بحيث يستطيع التأكد متى شاء من انتظام ضربات قلبه وسلامة تنفسه. وتحولت هذه الهدية الأخيرة منعطفا حاسما في حياة الأمير إذ دفعته الى حدود الهستيريا، وراح يستقبل الناس في مجلسه فيفاجئهم بالطلب إليهم الاقتراب ليستمع الى دقات قلوبهم.

ونتيجة تراكم الهدايا-الصدمات هذه، تدهورت حال الأمير وتشتت ذهنه ثم ساءت صحته، فتم عزله ونقل من حران الى مكان آخر!!

بذلك لعب رضائي دورا خاصا جدا في ضخ الصدمات من خلال ما حمله الى المجتمع الصحراوي من هدايا مذهلة، وبات حضوره محاطا بهالة خاصة.

ومع استقراره بدأ رضائي أعماله، فأنشأ شركة نقل بدأت بتحميل الإسمنت والخشب والمؤن سـامحا للمسافرين بالافادة منها مجانا. ثم استقدم سيارات نقل كبيرة قضت على السيارات القديمة وسائقيها.

ولما تطورت الأمور واستتبت على النحو الجديد، تحول رضائي الى رجل أعمال مثل الآخرين المستفيدين من السلطنة، خاصة أنه انتقل من حران الى موران حيث يتنافس

الكثيرون. وبات الحديث عنه في "الأخدود" يدور حين يعرض الحكيم المحملجي لخصومه، وحين تطرح قضايا انتخابات غرف التجارة التي يترشح فيها رضائي ضد مرشحي الحكيم.

واستمر رضائي في أعماله، ولم يتأثر بالانقلابات السياسية التي كانت تحدث ولا بتبدل السلاطين. فعلاقاته كانت جيدة بالجميع، وهداياه كانت توزع على نحو مدروس على الأمراء والوجهاء المورانيين.

وبعد، يعبر اسم رضائي عن شيء من مفهوم الاسترضاء والانتهازية، إذ إن انتزاع الرضا لم يكن إلا وسيلة لبلوغ ما هو أبعد منه: الثروة مهما كان الثمن.

٣٠١٠٢ . سعيد: النجاح بعد تراكم الخسائر

قد لا تختلف شخصية سعيد كثيرا عن شخصية رضائي من حيث هي تمثيل لنمط من الناس الوافدين الى موران ما بعد النفط بحثا عن الثروة والنجاح. لكن الفرق بين الرجلين يكمن في وصول سعيد الى موران في مرحلة متأخرة نسبيا كان الوضع فيها قد تبلور لجهة التحولات التي أحدثها اكتشاف النفط في البنيتين الاقتصادية والاجتماعية. لذلك، كان الوضع يفرض على سعيد أن يحاول طرقا وسبلا جديدة لاستمالة السلطات القائمة ودخول نادي النخبة ليؤمن نجاحه المهني.

وسعيد "نزق ومغامر ومستعد للقيام بأي شيء... رجل عملي كما يسمي نفسه، تعرض للخسارة تلو الخسارة في دمشق وعمان، فاعتبر أن إمكانيات الربح كبيرة ومضمونة في موران التي وفد إليها" (٣). ويتبين من هذا الوصف أن سعيدا تاجر أو مقاول فاشل في البلاد حيث التنافس والتزاحم عريقان ويتطلبان مواصفات معينة لجهة الخبرة والحنكة والحكمة والمغامرة المدروسة. وهو مستعد لولوج كل باب في سبيل الثروة دون أن يأخذ أي حدود أو مقاييس أخلاقية بعين الاعتبار. فقد "قيل إن سعيد عمل في المضاربات العقارية وفي تجارة السكر المهرب وحتى الاتجار بالمخدرات"(٤).

ومنذ وصوله، فهم سعيد طبيعة الأمور وسبل الوصول بسرعة. فعمد الى إقامة شراكة مع عبد العزيز الغامدي، وهو "مواطن موراني"، تسهيلا لإمكانات الحصول على قروض ومساعدات من الدولة من ناحية، وحماية للذات من أي طامع أو منافس من ناحية ثانية.

ولأن سعيدا وصولي، فقد أحس منذ البداية أن حضور الحكيم المحملجي قد يكون معرقلا لنجــاحه السريع، خاصة أن هذا الأخير يحس بالخطر من أي منافس محتمل له على ود السلطان وعلى التمتع بالنفوذ والسلطة. وقد أخفى كل من سعيد والحكيم مشاعره تجاه الآخر، وإن كانا يعلمان حقيقتها. فسعيد كان يردد أنه يريد أن يأكل العنب لا أن يقتل الناطور، والحكيم كان على يقين من تعذر اعتبار سعيد صديقا موثوقا بل عدو محتمل.

ولاسترضاء السلطان وتأكيد ولائه وتأمين استمرار أعماله، أغدق سعيد هداياه على القصر وقام بفرش مســجد السلطان خزعل بالسجاد، معتبرا أن في كل ذلك استثمارات يمكن جني ثمارها لاحقا.

ومثل رضائي، لم يتأثر ســعيد بأي من التبدلات التي أصابت الحكم في موران، فعلاقاته كانت منسوجة مع الجميع، ودوره التجاري والاستثماري لم يتداخل مع أي موقف "سياسي" أو شخصي تجاه أي من الأمراء.

ولعل في قوله في "بادية الظلمات" واصفا طرق النجــاح في موران إن "اللي ما عنده أمير لازم يشــتري له أمير حتى تمشي أشغاله بموران، وإلا راحت عليه!" (٥)، ما يلخص الفلســفة التي اعتمدها في أعماله من خلال التشارك مع التجار المحليين والاستظلال بأمير وعدم الخوض في أي صراع يمكن أن يحد من إمكانات النجاح وقطف العنب.

يعد ســعيد إذن (واسمه ينم عن سعادته الدائمة بكل ما يفعل) نموذجا يضاف الى النماذج الوافدة الى موران من حيث تعاطيه مع الحياة فيها واســتعداده للقيام بأي شيء للنجاح، بعد أن ضاق بالفشل في موطنه الأصلي ولم يعد لديه ما يخسره.

٣٠١٠٣ . سمير قيصر: قلم للإيجار

يحتل سمير قيصر موقعا خاصا في "مدن الملح". فهو مصري استقدم عبر أعوان الحكيم المحملجي لتأســيس صحافة في موران. وأعطي بالتــالي هامشا واسعا من حرية التحرك لتأسيس هذه الصحافة من دون أن يعني ذلك أنه في الأساس صحفي مرموق. ففي مصر هو واحد من آلاف يتعاطون الكتابة الصحفية والأنشطة السياسية. غير أنه في الفراغ الهائل في موران يستطيع أن يفعل ما يريد دونما خوف من تواضع مستواه أو تدنيه.

وسمير يساري سابق، تعرض للسجن السياسي نتيجة نضاله والتزامه، لكنه خرج من السجن إنسانا آخر. وقد تبلغت الدوائر الرسمية في موران هذه المعلومات عنه من المخابرات الأميركية التي أبدت تحفظات على وجوده. وفي ذلك إشارات الى قوة الحضور المخابراتي الأميركي وتدخله في القضايا العامة، ومنها الصحافة. غير أن الحكيم دافع عنه بنـــاء على معلومات من معاونه الذي اســـتقدمه والذي أشار الى أن ذلك الالتزام اليســـاري الذي انخرط فيه سمير مرتبط بماض بعيد، وأنه "جزء من تاريخ مضى وانقضى، وأنه نادم على إضاعة سنوات من حياته في أعمال سياسية صبيانية" (٦). وســـمير نفسه أكد أكثر من مرة أن ماضيه بات جثة خلفه وأنه أصبح إنسانا جديدا.

ويشكل المال الهدف الأســـاسي "وربما الوحيد" لسمير في موران، وهو لأجله مستعد لتحمل الغربة والخراب. وما من شـــخص في موران يعين سمير على وحدته سوى زوجة الحكيم وداد التي اعتبرها ديكورا وسط الصحراء القاحلة حيث هم، فارتبط بعلاقة جنسية بها. أما علاقته بالحكيم فكان لها هدف واحد. فما دام مرتبطا به، "لأن الحكيم عقل موران وأحد رجالاتها النافذين، فمن الضروري ممالأته وتحمل لغوه..."(٧) إذ يمكن عبره الوصول الى مواقع أهم تؤمن المال والثروة.

ونظرة سمير الى الصحراويين مليئة بالاحتقار والكراهية، إذ لا يمكن للإنســـان برأيه "أن يتفاهم مع هؤلاء البدو مهما قدم من تنازلات، إنهم حيوانات صحراوية، ويتصفون بخصائص لا يمكن أن يتنازلوا عنها أبدا ومن الجنون أن أفكر بالتكيف معهم.... وأصبحوا معقدين بعد أن جاءتهم الثروة بشكل مفاجئ ودون استحقاق. كل واحد منهم يتصور نفسه ربا من الأرباب، ويفهم كل شيء، لذلك من العبث مناقشتهم أو التفاهم معهم حول أي قضية، إنهم أعند من الصخر..." (٨)

ويتمسك ســـمير بأي فرصة تعرض عليه إنطلاقا من هاجس جمع الثروة والعودة الى مصر. فحين تلقى عرض الحكيم المحملجي القاضي بالتفرغ لكتابة تاريخ السلطنة وتســـميته "كتاب نسر موران" (في إشارة الى السلطان خزعل)، تبدأ الأحلام تراود سميرا حول المبلغ الذي سيتقاضاه وكيف سيقوم بإنفاقه. فالمشروع يصبح بالنســـبة إليه صفقة العمر ولو تحمل بسببها، الى غرور الحكيم ولغوه، "حقارة البدو" وتفاهة السلطان وغباءه.

ومع وقوع الانقلاب في موران، وعزل السلطان وتبخر مشروع الكتاب، يستمر سمير في موران، بعد ابتعاد قصير، ويتكيف قلمه مع السلطة الجديدة. فالمسألة بالنسبة إليه بين أخوة، في حين أنه غريب، مجرد ضيف في موران، ومن الأنسب أن يبقى بعيدا.

سمير هو إذن التجسيد لما يسمى اليوم بالقلم المأجور الجاهز للكتابة كيفما شيء له أن يكتب، وأن يمدح السـلطة، أي سلطة. وهو آت من ماض نضالي يعتبره في حاضره طيشا وضياعا ومراهقة يندم على إضاعة سـنوات من عمره في مثالياتها. غايته "التعويض" عما فاته بأي ثمن ومع أي كان.

ولا تبتعد بعض تجليات اسمه عن هذا المنحى. فسـمير استغل بداية قدرته على السمر والمسامرة ليحظى بثقة الحكيم المحملجي فيتدرج في المناصب والأعمال بالرغم من رأيه في حماقة الحكيم وتخلف البدو الذين يعمل لصالحهم...

٣.١.٤.٠ *مطيع: السكرتيريا والسمسرة*

مطيع شخاشيرو هو قريب الحكيم المحملجي، الذي استدعاه الأخير الى موران ليكون سكرتيرا للسلطان خزعل. والسلطان الذي لم يفهم بداية ماذا يعني أن يكون المرء سكرتيرا، ما لبث أن اقتنع بالفكرة ووافق على تكليف مطيع بالمهام التي حددها الحكيم.

ومنذ لحظة وصوله، أثار مطيع كما من المشاعر المتناقضة. فمن ناحية، سر الحكيم بوجوده في البلاط السلطاني كقريب يؤتمن جانبه، ومن ناحية ثانية، اسـتاء من هذا الوجود المقربون الآخرون من السلطان الذين أحسوا أن مطيعا جاء ليزاحمهم. أما مطيع نفسه، فلم يكن مرتاحا في البداية لما دعي إليه وأراد العودة من حيث أتى. لكنه مع الوقت أخذ يتـأقلم ويتمتع بتنفيذ ما يطلب منه.

وكانت أولى مهام مطيع القيام بشراء الأراضي وبيعها باسم السلطان، مما أكسبه معرفة بناس موران وقصصها، بالإضافة الى إفادته المادية من ذلك. والى متابعته المواعيد والاجتماعات وتحضير ما سمي بالملفات، فإن مطيعا كلف استقدام صحفيين وتأسيس صحافة في موران. فاختار "مجموعة من الصحافيين المحترفين، وكانت لعدد منهم أسماء لامعة ودفع لهم الكثير الكثير، إذ بالإضافة الى الرواتب الكبيرة أعطيت لهم امتيازات في السكن والسفر..." (٩)

ومع إنشـــائه الصحافة، بات يتسلل الى صفحات الجرائد فيظهر في جميع الصور مرافقا السلطان، وتبدو صوره "لفرط ما تكررت وكأنها الصورة ذاتها". فهو يقف الى جانب السلطان في مختلف الاحتفالات أو الاســتقبالات "ودائما يداه مكتوفتان الى صدره بذل، وعيناه تتطلعان الى الســلطان بإعجاب"(١٠). ويستدعي هذا التعدد في الظهور تعليقات عدائية من كل مستاء من أوضاع موران. فهذا نمر بن شمران يقول فيه "تذكرون موران قبل ما يصلها ذاك المبقع وأمثـــاله كانت بألف خير..." (١١)

ومطيع يتكيف بسهولة مع أي سلطة. فبعد أن صار مستشار الإعلام للحكومة، وقع الانقلاب الذي أقصي فيه الســلطان خزعل عن الحكم، فرحل مطيع مع الذين رحلوا الى بادن بادن في ألمانيا. لكنه ما لبث أن عاد بعد أن عرضت عليه المهام نفسها التي كان يشغلها في الحقبة السابقة الى جانب السلطان المخلوع كي يشغلها هذه المرة الى جانب السلطان الجديد.

وينخرط مطيع مرة أخرى إذن في العمل "الصحافي" الى جانب السلطة الجديدة، ويكلف الاهتمام بسباق الأحصنة والقضايا الصغيرة، والتركيز عليها لإلهاء الناس والأمراء وإبعادهم عن الاهتمامات السياسية.

إن خصوصية مطيع (والطاعة ماثلة في اسمه) في "مدن الملح" تكمن في دوري السكرتير الذي أدخله الى بلاط السلطان، والسمسرة الصحفية والتمجيد بالسلطة في صفحات الجرائد التي أنشأها. وهو نموذج عن الوافدين الباحثين عن أرباح وعن مهن يسهل النجاح في أدائها أيضا وأيضا غياب أي نموذج سابق منها وأي تقليد بوجودها وممارستها.

٣.١.٥.٠ غزوان: الأعمال وأشكالها الأكثر جدة

الشخصية الوحيدة في الخماسية التي تظهر منذ صغرها هي شخصية غزوان. وغزوان، الإبن البكر للدكتور صبحي المحملجي، قدم والعـــائلة للإقامة في موران بعد أن قرر المحملجي الاستقرار فيها.

لم نتابع على صفحات الخماسية مراحل تطور غزوان وتكون شخصيته بشكل دقيق، لكن الإشارات إليه بين الفينة والأخرى، والمعلومات التي تستخلص حول أوضاعه، من خلال الرســائل التي يبعث بها الى والده أو من خلال حـــضوره المباشر وأعماله

ووصف أحواله في أميركا وفي موران، تحمل الكثير من الدلالات المسعفة على فهم عقليته وقيمه. كما أن دوره الذي يتبلور بوضوح في المراحل الأخيرة من الحقبة التاريخية التي تتعاطى معها الخماسية يبين الى أي فئة من الناس ينتمي.

يتم أول ظهور لغزوان في موران، حين يرافق والده وهو ولد لزيارة السلطان خزعل، عن تطبعه منذ نعومة أظافره على تعلم سبل التودد والتقرب واستخدام المفردات المنمقة تلقائيا عندما يكون في حضرة ناس قال له أهله إنهم من علية القوم.

وقد نال غزوان رضا السلطان، وما هي إلا سنوات حتى قدم له هذا الأخير منحة للسفر الى الولايات المتحدة والدراسة في الجامعة التي أرسل إليها عدد من الأمراء المورانيين.

وسافر غزوان بالفعل، وواظب من هناك على إرسال الرسائل المليئة شكرا وتقديرا وامتنانا الى والده، والى السلطان خزعل. فبتنا نتعرف الى أحواله من خلال تلك الرسائل.

ولما عاد غزوان أول مرة الى موران، كان قد تغير كثيرا. صار رجلا سمينا خفيف الشعر. ولاحظ أبوه أنه يعرف الكثير من الأمراء وكبار الضباط المورانيين معرفة وثيقة إذ التقى بهم في الولايات المتحدة. وتوطد المعرفة هذا دليل على طبيعة العلاقـات التي كانت تنسج في الولايات المتحدة الأميركية بين الضباط والأمراء والطلاب المرموقين ودوائر السلطة. فغزوان انخرط بمجرد انتهائه من دراسـته في شركة أميركية ضخمة حصلت على امتياز تسليح الجيش الموراني وبناء منشآته العسكرية، وهو حضر لإعداد زيارة مسؤولي الشركة الى السلطنة بهدف تعميق العلاقات بين موران والولايات المتحدة، والتشاور مع وزيري الدفاع والداخلية وقائد الجيش ومدير المخابرات إضافة طبعا للسلطان والحكيم.

وتمت الزيارة، وبرز خلالها غزوان لاعبا دورا كبيرا في إنجاحها وفي توقيع الاتفاقات خلالها، ما دفع صاحب الجلالة الى تخصيصه بمعاملة مميزة (١٢).

واستمر غزوان في الشركة الأميركية هذه، وكافأته الشركة بالترقية تلو الترقية امتنانا له على الاتفاقات التي كان يقنع السلطنة بجدوى توقيعها.

وقد عبر غزوان لأبيه عن أن "تزايد أهمية السـلطنة للاقتصاد العالمي يترافق مع انتقـال القرار من الداخل الى الخارج، إذ كلما أصبحت موران أكثر أهمية أصبحت أقل قدرة على اتخاذ القرار" (١٣)، وهو لذلك لم يعد مهتما بصراعات والده داخل موران مع

المتنفذين الآخرين، ولا حتى بالوقوف الى جانب السلطان خزعل في وجه أشقائه. لذلك، حين وقع الانقلاب وأطيح بخزعل ونفي والده وصودرت أملاكه، لم يتأثر غزوان، وحافظ على علاقاته الطيبة بالأمراء وبالسلطان الجديد فنر. فموران "الدولة هي الأساس، وهي التي يجب أن أتوجه إليها وأن أتعامل معها، لأن موران ليست السلطان خزعل أو غيره. موران هي الكيان، هي الثروة، وهذا ما يجب أن أفكر فيه باستمرار.... الرأسمال باق، وهو الذي يشكل القوة والهدف، أما الإدارة فإنها قابلة للتغير باستمرار..." (١٤)

ومع تحسن أوضاعه من ناحية، وتعاظم ثروة موران ودخولها في صراعات عسكرية ضد أحدى الدول في محيطها (الدواحس) من ناحية ثانية، بدأ غزوان يستقل عن شركته ويؤسس أعمالا خاصة به متعاقدا مع مؤسسات بالجملة، ومقحما الأمراء في عقود متنوعة. وهنا تبرز جوانب أخرى من شخصيته، مرتبطة بعلاقاته المهنية والإنسانية التي وصلت به إلى ما صار عليه. فعبر استعراض شريط من الذكريات، نفهم عقلية غزوان الوصولية التي تضع الحياة المهنية في المقدمة وتؤسس للعلاقات الشخصية بناء على منفعتها. كما تتبدى نظرته للمرأة كحاجة منزلية وجنسية، وكوسيلة غواية يمكن أن توصل الى النجاح.

ومع بدء تعهداته الكبيرة، لجهة تأمين السلاح والحاجيات المختلفة وبناء المدن الجديدة، قرر غزوان أن يبعد أي منافس ممكن عن الساحة. فاستخدم إليانور صديقته وسكرتيرته التي لاحظ أنها تجذب الأمير راكان أحد أركان السلطة المورانية، لتطلب من الأمير إقصاء أبرز منافسيه وإبعاده عن موران. وكان له ما شاء.

والى جميع المشاريع الضخمة التي التزمها، كان غزوان يؤمن خدمات من نوع آخر. فللترفيه عن الجنود والطيارين الاميركيين والمرتزقة والأمراء خلال الحرب على الدواحس، لزم غزوان الإتيان بعاهرات. ولعب بالتالي دور المتاجر بالرقيق، الحريص على إخفاء الأمر: "بالتأكيد سنحرص على السرية المطلقة، يا صاحب السمو، وزيادة في الحيطة، وإذا عرف شيء عن الأمر، فإن القادمات ممرضات" (١٥).

وفي ما سمي أسبوع المجهود الحربي لجمع الاموال تمويلا للحرب، انتظر غزوان "حتى سلم ابن العليان وغيره من كبار القوم مبالغهم، فقام عندها بالتبرع"(١٦)، دون أن يفوته طبعا البقاء تحت سقف تبرعات الأمراء كي لا يغضب أحدا منهم. وفي ذلك

ســـلوك ينم عن مراعاته المبادئ العامة في التعامل مع أصحاب السلطة والنفوذ للإبقاء على ودهم ورضاهم.

وبالرغم من الظاهر الودي هذا تجـــاه الأمراء والسلطان وموران، فإن باطن الأمر كان مختلفا، إذ أن مشاعر غزوان الحقيقية ورأيه بالمورانيين كافة ترجمتها أقواله التالية: "أولهم وآخرتهم بدو. الفلوس عمتهم، والواحد منهم يحسب ما عنده من فلوس ويقارنها براتب رئيس الولايات المتحدة، فيظن أنه أقوى وأهم من الرئيس..." (١٧) ولعل حواره الأخير وأحد شركائه الأميركيين (ليفي شاوات) أوضح تعبيرا عن حقيقة موقفه من موران وثروتها وأموالها: "قال ليفي شاوات لغزوان: إسم شركتنا: الشركة العالمية للتصدير. وهذه مهمتنا، وهذه صفتنا، ولا بد أن نتمسك بذلك، فإذا كان الأمير راكان راغبا في أن يتسلم صادراتنا فعليه أن يقيم شركة أخرى لتتولى الأمر.

رد غزوان وهو يقهقه: موافق مئة في المئة، وإليانور موافقة أيضا، خاصة بعد أن تخلصنا مـــن تجربة المطاعم السريعة، فالناس هناك لهم مزاج لا يمكن أن يتغير بالسهولة التي افترضناها، لا بد للزمن أن يلعب دوره. فلنترك لهم الأشياء التي يستطيعون القيام بها أحسن منا، ولنثبت لهم أيضا أن القرار أصبح بأيدينا، رغم آلاف الكيلومترات التي تفصل بيننا" (١٨).

لا يبتعد اسم غزوان في معناه كثيرا عن مسار صاحبه في الخماسية. فالغزو الذي قام به كان ضخما الى حد أن اقترانه كســـلوك بالاسم العلم اقتران طبيعي وبديهي. ويمكن، فضلا عن ذلك، لحظ صيغة المثنى التي يحتويها والتي تلخص الى حد بعيد سيرة غزوان في الصحراء. فهو غزاها مرتين، مرة عبر والده، ومرة عبر الشركة الأميركية حيث عمل، قبل أن يثمر الغزوين لصالحه دون أحد سواه.

ينفرد غزوان بين جميع الشخصيات المذكورة أعلاه كنماذج من الوافدين الى المجتمع النفطي، بميزة لم تعرف قبله. فهو لم يمر بقنوات تقليدية ومحددة لجهة طريقة الوصول الى الأعمال والثروة، بل شارك في ما يشبه فعل النفاذ الدائم الى قلب الحدث."فعصرنة" الأعمال من خلال "الأمركة" ميزت غزوان عن غيره من رجال الأعمال الناجحين ومكنته من التحول نقطة صعبة في المعادلة المورانية بمعزل عن القيمين عليها.

شكل أكثر الوافدين إذن نماذج مستجدة في السياق الاجتماعي للجزيرة العربية. فأعمال السمسرة وأنماط التجارة ووظائف السكرتيريا والصحافة بالإضافة الى التعهدات والالتزامات والصفقات الضخمة طرأت بعد النفط. ويظهر تتبع التطور الذي عرفته الدول الخليجية على الصعد السياسية والإدارية والاقتصادية منذ أواسط القرن حجم الدور الذي لعبه القادمون إليها من لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من الدول العربية. غير أنه دور لم يتخط مجـــالات الربح المادي إلا نادرا. فصناعة القرار ظلت محصورة في قنوات سياسية يؤثر فيها الأميركيون على نحو خاص. وســـأتناول الإشارات الواردة إليها في الخماسية في الفصل الرابع من هذا البحث.

٣٠٢٠ صبحي المحملجي: توهم القيام بدور سياسي

لم يحـــاول أحد من الشخصيات التي عاشت في مساحات "مدن الملح" أن يلعب دورا يتخطى موقع ردة الفعل في التعامل مع الحدث النفطي ونتائجه غير الحكيم صبحي المحملجي. وحده ذلك الطبيب الاختصاصي بالجهاز التناسلي، الذي وصل الصحراء مع بدء الغليان فيها، سعى للانتقال الى موقع الفعل. كان يعتقد بأنه، الى تحصيل الثروة بشتى الوسائل، منذور لدور تاريخي خطير: بناء دولة. وحاول ترجمة اعتقاده هذا الى فعل، فجعل ينظر للســـلطان خزعل وسعى من خلاله الى بناء الدولة التي حلم بها. لكنه نسي أنه يلعب خـــارج قواعد اللعبة، فانتهى الى حيث كان يجب أن ينتهي في تلك المعادلة الصحراوية النفطية: الخيبة والمنفى.

"وبدا الحكيم صبحي المحملجي ببياض بشرته المشربة بحمرة، ثم بملابسه والنظارات التي يضعها على عينيه، شـــخصا من عالم آخر. فطريق حران الذي يستقبل أعدادا تتزايد يوما بعد يوم من سنين، لم يشهد شخصا بهذه الأناقة والنظافة والصحة" (١٩). هكذا أطل الحكيم على حران. كان طبيب بعثة الحجاج القـــادمين من بلاد الشام، موطنه. لكنه كان قد قرر، وقبل انطلاق حملة الحج التي رافقها، أن يبحث لنفسه عن إمكانـــات عمل في حران حيث الأمور في تغير مستمر ومتسارع.

لذلك، قام الحكيم بزيارة استطلاع الى حران وزار أميرها وعاين واقعها. وقرر بناء على ذلك أن يستقر فيها. وكان لقراره هذا أن أثار منذ البداية تساؤلات كثيرة. ففي حين رحب بعض أهل حران بذلك من منطلق كونه ضرورة لمدينتهم وأهلها لأنه "أعظم

طبيب في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، كما يحب مساعده محمد عيد أن يؤكد"(٢٠)، تحفظ بعضهم الآخر وأبدى شكوكا بنواياه. وذهب عدد من الناس بعيدا في تحفظهم الى حد القول بأنه منافق سيجلب الويلات لحران وأهلها. وكان على رأس هؤلاء مفضي الجدعان طبيب حران كلها قبل وصول المحملجي إليها. وفي ذلك إيذان بإمكانية الصدام بالحكيم إثارة لشكوك مبكرة حول مراميه.

إلا أن هذا التمايز في المواقف تجاه الحكيم لم يطل، فما هي إلا بضعة أسابيع حتى بدأ الإجماع حول كراهيته واحتقاره يحتشد في نفوس الحرانيين. ذلك أنه كان يرفض على نحو متزايد معاينة أي مريض غير قـــادر على تسديد المال لقاء معاينته، كما كان يلزم مرضاه شراء أدوية خاصة يبيعها بنفسه وبأسعار مرتفعة.

وحين أظهر، مقابل بخله وجشـــعه في تعامله مع الناس العاديين، بذخا وتملقا كبيرين في تعامله مع الأمير خزعل وأعيانه القادمين لافتتاح خط الأنابيب في حران، تأكد النـــاس من "سوئه" وقال أكثر المدافعين عنه، ابن نفاع الذي خاصم مفضي بسببه: "آه... يا ابن الحرام. حســـبناك ابن أوادم تراك طلعت مثلهم" (٢١). وتكرست صورته كمتملق أفاق وإن شابها بعض الإعجـــاب بقدراته الخطابية: "أما أن يكون خطيبا مفوها، أن يحفظ الشعر ويورد الأمثـــال، وبعض الأحيان يورد الطرائف والقصص، كل ذلك ضمن نبرة واضحة قوية، إن هذا لم يعرف عنه، ولم يتصوره أحد"(٢٢).

ومع مرور الوقت وتمكن الحكيم من تثبيت حضوره ومكانته في حران ومن افتتاح مستشفى فيها، بدأ يحدد لنفسه أعداء يجب التخلص منهم وإزاحتهم عن دربه. وكان أول هؤلاء مفضي الجدعان. فراح يلفق التهم ضده تارة بالســـرقة وتارة أخرى بالاحتيال، وصولا الى اتهامه بالتســـبب في موت مرضى أو إلحاق الأذى بهم. غير أن أبرز ما قاله فيه أنه مشرد وينبغي سجنه بوصفه متشردا: "لم يكن في حران، ذلك الوقت، إلا ذاك الدجال... لقد نســـيت اسمه، كان يقتل الناس بالأدوية التي يعطيها، وكان يصرخ ويشتم عندما بدأنا الطب الحديث. الآن خلصت حران من هؤلاء المشردين، وهذه المستـــشفى دليل على ذلك" (٢٣). وحين أتته فرصة القضاء على خصمه، لم يتردد. إذ رفض الذهاب لإسعافه بعد أن أصيب بطلق ناري، وقال لمساعده: "حط بالخرج وأنس هذا الكلب" (٢٤).

ولم يكن الحكيم يتأخر في التعبير عن رأيه بالحرانيين أمام مســـاعده، فيقول: "الجماعة، يا أخي، بدو، حمير، إذا قلت لهم: ثور، يقولون: إحلبه!... حتى الأغنيـــاء منهم

حمير.... كلهم حمير، من فوق الى تحت" (٢٥). وبرغم ذلك كان يتودد إليهم ويقدم الهدية تلو الهدية. كانت نقطة قوة الحكيم في تعامله معهم، علاوة على الهالة الطبية والأدبية التي خلقها حول نفسه، مكانته لدى الأمير والأعيان نظرا لتزويده إياهم بمنشطات جنسية، وهو الإختصاصي بأمراض الجهاز التناسلي.

وبهذا، كرس الحكيم مع الأيام سلطته ونفوذه في حران، وبات أحد وجهائها المقربين الى السلطة المحلية، والى ولي العهد.

وفي "الأخدود"، يفتتح الحدث على الحكيم الذي استدعي على عجل من حران الى موران لمعاينة السلطان خريبط المحتضر. فبدا في تلك الزيارة "شخصا مختلفا، بل وخطيرا، لأن العيون كلها كانت تراقبه وتتابعه، ولأن حياة السلطان كانت بين يديه"(٢٦). ومع تتويج ولي العهد خزعل سلطانا، قرر الحكيم تصفية أعماله في حران، والانتقال الى مدينة موران ليكون بجانب السلطان، خالعا ثوبه الافرنجي ومرتديا الملابس العربية، التي بدا فيها مثل دمية لفرط غربته عنها.

وفي موران، بدأ الحكيم يغير نمط حياته. فالطب بات ثانويا في تعاطيه العام. صارت الثروة والسلطة هاجسيه، وازداد تقربه الى السلطان وحضوره في مجالسه. وراح يشتري الأراضي بحجج مختلفة منها التواجد قرب السلطان، ومنها بناء المستشفى الكبير. واستخدم ضباطا من الشرطة هددوا أصحاب الأرض طالبين منهم بيعها.

ثم أحضر الحكيم زوجته وأولاده للاستقرار في موران الى جانبه، وراح يتحين فرصة تقديمهم الى السلطان لتطوير العلاقات التي نسجها معه ومع عائلته. فرتب زيارة لزوجته الى حرم السلطان، وطلب أن يزور وابنه جلالة السلطان لتقبيل يده وأخذ بركاته.

وضمن السياق نفسه، ركز الحكيم على تركيب صورة خاصة به تغلفها هالة من الغموض والتعالي مضافة الى جو تعبد وقراءة وثقافة. فامتنع عن الاختلاط بجيرانه، وواظب على الصلاة في المسجد الكبير، وروج من خلال مساعده أنه لا ينام حتى أذان الفجر وهو يقرأ ويغوص في الكتب والمجلدات. كما أنه كان دقيقا في وقته ومواعيده إذ يعتبر احترام الوقت أساسا للنجاح. وانعكس ذلك على أشكال ظهوره وأوقاتها، إذ إن أكثر الإشارات إليه على امتداد الخماسية كانت تترافق مع تحديدات زمنية (ما كاد الأسبوع

الأول، قبل بضعة شـــهور، في بداية الصيف، في اليوم الثالث، عصر الخميس، ثلاث ساعات وثمانيا وثلاثين دقيقة) (٢٧).

ثم انتقل الحكيم الى مرحلة جديدة من مراحل بناء حضوره في موران. فابتاع قصرا وأطلق عليه اسما (قصر الحير)، قائلا إنه "جاء الى هذا المكان ليغير كل شيء: العقول والناس، وحتى الأسماء، ومن يعش ير!" (٢٨)

وانطلاقا من الأرضية "الصلبة" التي كونها، أخذ ينخرط أكثر في مهام سياســية الى جانب السلطان، مقترحا إنشاء الأجهزة والمؤسسات. ولعل جهاز الأمن السري أو المخابرات، وجهاز الإعلام والصحافة كانا أبرز ما اقترح إنشاءه. وراح يبحث في الأسماء بهدف إيجاد "الرجل المناسب للمكان المناسب". فوقع اختياره على حماد لجهاز الأمن السري وأقنع السلطان به، وعلى قريبه مطيع الذي أتى به ســكرتيرا للسلطان ومسؤولا عن بناء صحافة مورانية مطلوب منها "أن تعيد تشكيل أي عقل، حتى عقل السلطان..." (٢٩) واستند الحكيم في رؤيته لدور الصحافة الى فلســفته القائلة بأنه: "إذا اقترن الفقر بالحلم تولد الثورة... أما إذا ضمنا أن يقرأ الناس ما نكتب، ومنعناهم من قراءة ما يكتبه الآخرون، وإذا راقبنا كل شيء وعرفنا كيف نسد الثغرات، فنكون قد كسبنا نصف المعركة... لا بد إذن أن نبدأ اللعبة على أصولها، أن نخلق صحافة وأن نكسب صحفيين" (٣٠).

ومع تضخم دوره على نحو سريع وقبول جميع اقتراحاته، بدأت مظاهر فقدان الاتزان تسيطر على الحكيم. "فقد أصبح على يقين يترسخ ويتزايد يوما بعد يوم أنه ليس مجرد مستشار السلطان، وإنما هو منذور لأمر عظيم: بناء دولة!" (٣١) وأكثر من ذلك، بات يعتقد أنه باني فكر فلســفي وصاحب نظرية لم يسبقه إليها أحد ولم توردها كتب التاريخ، نظرية المربع، أو فلسفة المراكز الأربعة: العقل والقلب والمعدة والطاقة الجنســية. "كما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية من سقوط التفاحة، وقبله أرخميدس وهو يستحم، كذلك وجدت نفسي أكتشف نظرية المربع" (٣٢)، هكذا كان الحكيم يقول. وكان ينطلق من هنا ليسبح في فضاء مخيلته مكررا أنه ليس مجرد مستشار للسلطان، بل "صفيه وعقله المفكر" (٣٣).

غير أن جنون العظمة الذي أصابه لم يبعده عن التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية وما فيها من مناكفات مع المنافسين المحتملين. فالحكيم كان يخاف من كل وافد جديد

ويحرص على إبعاد الجميع عن القصر وحصر علاقتهم به كوسيط وشريك في الأعمال دون إعلام القصر بها. ويمكن الاستنتاج أن خوفه هذا من الوافدين مثله الى الصحراء ناجم عن كون استثنائيته في محيط السلطان يمكن أن تتعرض للخطر: فهو لم يكن سوى شخص عادي في بلده الأصيل مثل أي من أولئك الوافدين بعده الى الصحراء. لذلك أزعجه قدوم رضائي من حران الى موران، فهو منافس محتمل. كما أنه بقي حذرا طيلة الوقت من سعيد وأنشطته.

وبدأ الحكيم يسعى الى إبعاد المقربين الى السلطان الذين خاصموه مشككين بكفاءته ونظافته ليخلو له الجو، خاصة بعد أن تأكد من مكانته المميزة عند السلطان التي توجها الأخير بزيارته في بيته. فشن حربا شرسة ضد الشيخ مالك الفريح أمين صندوق السلطان الذي كان يتهمه بأن "مشاريعه الإعمارية هي مشاريع أعداء موران"(٣٤). ونجح في حربه تلك عليه، وتسبب بإقصائه.

ولا شك في أن علاقته المتوترة بحاشية السلطان ارتبطت الى حد كبير بكونه ظل بالنسبة إليهم "غريبا" يسطو على أموالهم ويقرر عنهم ويؤثر على سلطانهم ويرسم له سياساته. وبقيت هذه الحرب الصامتة أحيانا والمعلنة أحيانا أخرى تؤرق الحكيم وترهقه. فكلما تباعدت لقاءاته بالسلطان كان يشعر بأن ثمة ما يجري من خلف ظهره وبأن هناك من أوغر صدر السلطان ضده، وبأنه ضحية مؤامرات خبيثة لإبعاده.

غير أن أبرز التطورات التي شهدتها علاقة الحكيم بالسلطان خزعل تبقى تزويجه ابنته سلمى. فالسلطان الذي رأى الفتاة في منزل الحكيم أراد الاقتران بها، ولم يكن بمقدور أحد أن يرفض طلبه. ثم كان حفل الزفاف، وغادر على إثره السلطان وعروسه الى بادن بادن في ألمانيا لقضاء شهر العسل، فحصل التطور الدرامي في مجرى الأحداث، إذ أعلنت الإذاعة أن الأمراء اجتمعوا بعد تفاقم مظاهر الفساد والإفساد وقرروا تنحية خزعل وسموا الأمير فنر سلطانا جديدا.

بذلك خلع السلطان، وكان من البديهي أن يخلع معه أقرب الناس إليه الحكيم صبحي المحملجي. فوصلت سيارات عسكرية الى بيت الحكيم، وأعطته مهلة ساعة لمغادرة أراضي السلطنة. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياته.

الى بادن بادن انتقلت الصورة، واحتل الحكيم من جديد حيزا خاصا فيها. لكنها كانت سوداء قاتمة. فالحكيم انبت عن كل جذر من جذوره، والسلطان المخلوع سقط في

دوامة الألم. أما المقربون الذين رحلوا قسرا أو طوعا فانقسموا بين باحث عن إمكانية العودة ويائس أسقط في يده.

وإذا كان المحمـــلجي قد بدا في أسابيع المنفى الأولى وكأنه ما زال ممسكا بزمام الأمور، إلا أنه مع مرور الوقت بدأ يضعف ويشعر ببهتان دوره، لأن المقربين من الســـلطان اعتبروه أصل البلية وسبب النكبة التي حلت بهم. ولأن ضيقهم بالحكيم وحقدهم عليه في الفترة الســـابقة لم يمكنهم من اقتلاعه أو إقناع الســـلطان بإبعاده، فإنهم في الوضع المتدهور كانوا قادرين على فعل ما يريدون. وبدأت حربهم على الحكيم مضافة الى سلوكهم العدائي تشتعل، وبدأوا يحققون النجاح تلو الآخر في عزل الحكيم وإحكام الطوق عليه.

ورغم سعيه لمســـاعدة السلطان "داخليا وخارجيا" على طريقته، فإن دور الحكيم أخذ يتراجع. ثم راح القلق يحاصره من كل ميل مع وصول بعض أولاد السلطان وأشقائه لزيارته. فتجاهل السلطان له عند اجتماعه بأخيه اعتبره بداية سهوا أو خطأ لا بد أن يصحح باعتذار وبدعوة الى اجتماع عاجل، إلا أن شيئا من ذلك لم يحصل. بل استمر هذا التجاهل ودخل الحكيم بسببه دوامة الانهيار والندم والشـــعور بالعقوق تجاهه وتجاه ما قدمه الى السلطنة: "أحسن ما عنده: بما في ذلك ابنته" (٣٥).

ومع تعاظم الشعور بالعزلة بدأ انهيار الحكيم النفسي ثم الجسدي يتزايد الى أن استسلم لغيبوبة لم يجد الى جانبه حين أفاق منها غير ابنته سلمى.

وازدادت الأمور ســـوءا مع وصول زوجة السلطان الأولى عدلة التي أرادت التخلص من ضرتها الصغيرة بأي شكل، فعملت على تأليب السلطان ضدها وضد أبيها الى أن دفعته لتطليقها.

وكان لا بد للحكيم هنا أن يغادر نهائيا قصر المنفى في بادن بادن. ترك الحكيم ألمانيا وتوجه الى سويســـرا برفقة سلمى ابنته التي لم تعرف ما الذي يجري من حولها. وهناك، حلق ذقنه وأعاد ترتيب هندامه وقال لابنته إن صفحة جديدة من الحيـــاة ستبدأ الآن، وإنه "من هذي الساعة أي شيء بتريدي، أي مكان بتحبي، على عيني وراسي، بس اطلبي وتمني" (٣٦). كان الألم يعتصره وشعوره بالإثم يأكله من الداخـــل. قال "حتى المصريون القدامى كانوا أحسن منا وأرحم" (٣٧). فما فعله بسلمى لم يكن ليغفره لنفسه. وكأنه تذكر في تلك الفترة ما ارتكبه بحق ابنته بهدف الوصول الى جوار الســـلطان

والتمتع بالثروة والنفوذ. وأصبحت سلمى منطلقا للتعاطف معه وجزءا من عملية بناء صورته الجديدة وما فيها من حزن وعقدة ذنب.

ورغم أساه وضياعه، ظلت شذرات جنون العظمة تتملكه بين الحين والآخر. فها هو يعود ويقرر كتابة مذكراته ويومياته ويختار لها عناوين فخمة كلها إبهار وقناعة بالاستثنائية، فيسميها "أوراق الغربة أو ذاكرة الأيام" (٣٨).

لكن المشهد التراجيدي يعود ليحيط بالحكيم عند انتحار ابنته سلمى. فهي لم تتحمل آثار ما عانت منه. ولم تتحمل غياب والدتها وأخيها اللذين عادا الى موران بحجة تصفية الممتلكات قبل أن تضيع. لذا آثرت الانتحار والرحيل.

وبموتها، ينتقل الحكيم الى حالة جديدة. يطل في "بادية الظلمات" عائدا الى موران مع زوجته وابنه اللذين استأذنا السلطات الجديدة السماح بعودته لأنه أصبح عجوزا وقاب قوسين أو أدنى من مفارقة الحياة. وكل ما يعرف عن الحكيم في تلك الفترة أنه بـــات في أرذل العمر لا يصدق أحد ما حل به، وما آل إليه شخصه من تدهور وعته وهلوسة.

ويقفل حضور الحكيم على تأفف زوجته منه وانتهـــاء قدرتها على تحمله، وتحمل جنونه وسيوفه وأحصنته الخشبية الدونكيشوتية. وفي هذه النهاية التراجيدية عبرة مستمدة من مسار حياة المحملجي على امتداد رقعة "مدن الملح" وما فيها من هوس وطواحين هواء.

يمكن القول إن الحكيم كان من أطول الشخصيات حياة في "مدن الملح" وأكثرها تعقيدا. فقد ظهر إنســـانا مجبولا بالعقد والانتهازية والأحلام غير المتزنة، لكنه ظهر أيضا مليئا بالوساوس والمخاوف والقلق والضعف. وبقدر ما خلق اشمئزازا واحتقارا لشخصه وسلوكه في بداية عهده في الصحراء، بقدر ما خلق فيما بعد تعاطفا معه عند انهياره وتعبيره عن ندامته لما فعله بابنته.

وثمة تتبع دقيق للتفصيل الاجتماعية والنفسية يرافق عملية بناء شخصيته طيلة فصول الخماســـية، بهدف شرح سلوكه ومآله. فهو أتى من مجتمع ســـوري-لبناني كان فيه طبيبا عاديا قادرا على تحصيل مدخول جيد والتمتع بحياة مرفهة وإقامة علاقات مع الطبقة الاجتماعية الوسطى التي ينتمي إليها. غير أنه لم يكن يحلم بلعب أي دور استثنائي لا على المستوى الفكري ولا على المستوى الاقتصادي ولا على المستوى السياسي. ولأنه كان يردد دائما أن وطن الإنسان هو حيث نفوذه وثروته، وأن الفتى هو من يقول "ها أنذا"

وليس "كان أبي"، فقد استسهل مغادرة بلده والبحث عن "وطن". فوقع على الصحراء التي شجعته الى أبعد الحدود كونه من أول الواصلين إليها بعد ظهور النفط وهبوط الثروة. ونسج علاقاته الأولى مع أمرائها ثم مع سلطانها في ظل جهل هؤلاء بسبل إدارة الثروة من ناحية، وسبل إنشاء أجهزة الدولة الناشئة وإداراتها من ناحية ثانية. فبرز نتيجة ذلك، واستفرد بالعلاقة بالسلطان مقصيا كل من يمكن أن يملك "كفاءة" شبيهة بكفاءته.

وتأسس عنده إحساس بالقدرة على رسم السياسات وتكوين الأجهزة وبناء الدولة، وفوق ذلك، إنتاج منظومة فكرية فلسفية جديدة. ثم بلغ حد الهوس الدائم بعبقريته وتميزه، رغم أنه كان في الوقت نفسه يتوجس خيفة عند شعوره بأي تهميش له في أي من مستويات السلطة الرئيسية أو الثانوية. لقد كان مصابا بنوع من جنون العظمة أدى الى انهياره السريع عند نفيه والسلطان. ثم كانت خيبته ونهايته كساع للعب دور تخطى الربح المالي ليلامس صناعة السياسة.

ومع أفول نجمه كان الندم على بعض ماضيه، وتحديدا تزويجه ابنته للسلطان، منطلقا للتطهر ويقظة الضمير عنده، فأثار التعاطف مع يأسه وذله وضياعه عوض تذكر قذارات ماضيه... ويمكن الجزم بأن فقدانه الاتزان في النهاية كان تتويجا طبيعيا لمسيرة حياته.

ويحمل الاسم المنتقى للحكيم العديد من المعاني المرتبطة بشخصيته. فاسمه الأول صبحي شبيه بما كان يحب هو نفسه الحديث عنه طيلة الوقت: إشراقه الفكري كما تشرق الشمس في الصبح وتغير معالم الوجود والكون. أما اسمه الثاني المحملجي، فالى كونه اسم مهنة (الحمل)، فهو مرتبط بالقدرة على الحمل والتحمل وبالتالي الصبر. وهي أيضا صفات حاول ادعاءها وممارستها في فترات طويلة. أما ما كان يحب دائما أن ينادى به، لقبه "الحكيم"، فمرتبط بمهنته الطبية وبما يدعيه من حكمة ورجاحة عقل وقدرة على توليد الفكر.

كان الحكيم المحملجي أبرز الوافدين الى الصحراء في تلك المرحلة من دون شك. وقد حاول التمايز عن الجميع من خلال الاضطلاع بأدوار لم يبحث عنها سواه. إذ أراد مزاوجة جناه المادي بالدور التاريخي الذي يحوله علامة فارقة. لكنه سقط في الاختبار. سقط لأنه لم يكن مؤهلا، وسقط لأنه لم يستوعب أن ثمة حدودا حمرا في كل شيء، وخاصة في السلطة.

الحكيم هو في الوقت نفسه صورة عن الوافدين من "بلاد الشـــام" الى صحراء جزيرة العرب ونقيض لهم. يشبههم لجهة البحث عن الثروة، ويناقضهم لجهة البحث عن المجد السياسي. فقد كانت الجزيرة العربية بعد ثورتها النفطية بالنسبة إليهم كمثل أرض الأحلام، يتحملون مشـــقات العمل فيها لفترة ثم يعودون بعدها الى أهلهم وقد حققوا أمنية العمر: الثروة والجاه.

والشخصيات المندرجة ضمن هذا الفصل كانت تجســيدا جديدا لفئات من البشر تفاعلت مع الحدث النفطي في تلك الحقبة التاريخية، وأسهمت في إحداث تبديلات اجتماعية لم تنته آثارها إلى اليوم.

الفصل الرابع

الوافدون الى الصحراء من الخارج:

بين البدائية والفتح المبين

منذ اكتشـــافها والصحاري الشاسعة تشبه عالما سحريا عجيبا في مكوناته وخصائصه: رمال لا متناهية، شمس ساطعة، وليل حالك ومكان صامت يتوقف فيه الزمن وتتعطل معه عقارب الساعة لأن أفقيته وثباته لا يتركان مجالا للشعور بأن ثمة حركة تغلف الحياة وتجدد خلاياها. لذلك، سحرت الصحراء المغامرين، وجذبت العلماء والرحالة.

ولا تشذ صحراء الجزيرة العربية عن الصحاري عامة بفتنتها وغوايتها وصيدها المغامرين. غير أن صيدها هذه المرة كان مختلفا. فقد أتاها أناس من كل حدب وصوب. أشـــرنا في الفصل الســـابق الى القادمين منهم من المحيط العربي، ونتعاطى في هذا الفصل مع الآخرين. أي مع الذين أتوها من خلف البحر أو من وراء الجبـــال وليس من محيطها الناطق بلغة أهلها. وهؤلاء فئتان: فئة وفدت قبل تفجر ثروتها للعمل فيها والارتزاق المتواضع، وفئة وصلتها لاجتياحها وتفجير ثرواتها ثم السيطرة على تلك الثروات والتحكم بها.

٤٠١ • نهاية الدخول المقبول

تتكون الفئة الأولى من أناس بســـطاء وصلوا بحثا عن مورد رزق يعينهم على الحياة وصعوباتها، أو هربا من أوضاع حاصرتهم في مواطنهم الأصلية. أتوا متســـلحين بمهن لم تكن قد تكاثرت بعد في الصحراء بمقدار تكاثر الحاجة إليها، فاندمجوا بالمجتمع الذي استقبلهم وإن بقوا على مسافة معينة منه حرص هو أيضا على عدم إزالتها. في ما يلي محاولة للبحث في دخولهم ومآلهم بعد ظهور النفط.

٤٠١٠١ • محمد الفران: الجنس انتماء

يعتبر محمد الفران (أو محمد عبده) شخصية فريدة في حران. فهو الى كونه محبا للحياة والغناء، فران البلدة الصديق لأبنائها المتهامسين عن عشقه "الكيف الذي يفسر احمرار عيونه الدائم. أصله من تهامة أو سومطرة، ويقال أنه مدان بقتل شخصين هناك" (١).

محمد وافد الى الصحراء إذن من مكان آخر هو إندونيسيا. ماضيه ليس واضحا تماما، وسلوكه ليس في جميع تفاصيله مرضيا للحرانيين. غير أنهم رغم ذلك أحبوه وقبلوه، وعبروا عن تسامح تجاهه. وهو ظريف، يدندن ويراعي الناس، كما أنه يعمل بكد ويصير حاد المزاج إذا ما قوطع خلال تأديته عمله.

ومع وصول الأميركيين الى حران، تغير محمد الفران وانقلبت شخصيته تماما. أصيب بحالة أشبه ما تكون بالجنون، إذ هوسته النساء الأميركيات اللواتي قدمن على متن الباخرة لزيارة أزواجهن وأصدقائهن، وجعل يفكر بهن ويحلم ليلا نهارا بجمالهن "ولحمهن الأبيض".

وعشق محمد صور النساء في المجلات الأميركية التي يسرقها العمال من "حران الأميركان"، وراح يخترع أسماء لهن، كما "أغرم بإحداهن وجعل يتخيل أنها كانت بين اللواتي قدمن في الباخرة، وأنه عشقها وعشقته" (٢). وضاع غارقا في هوسه. بات يقضي ساعات داخل محله المقفل، لا يعرف أحد ماذا يفعل فيه، وحين يشاهد بعد ذلك يكون كئيبا حاد المزاج.

ثم "اختفى محمد عبده، وظهر فجأة على الشاطئ، هزيلا، يدندن بأغان حزينة... قيل إنه كان يبكي... وروي أنه سبح حتى باخرة الأميركان، ثم صعد إليها بعد أن مدت المرأة التي يحبها له حبلا، وبقي هناك، ثم عاد بصورتها" (٣). وظل على هذه الحال من الضياع، وأقفل فرنه ولم يعد يشاهد في حران.

انتهى بعد أن سكنته حالة من المس جعلته لا يفكر بغير النسوة اللواتي رأى وبغير الجنس معهن. بذلك، لم يستطع محمد الفران (وقد لازمت اسمه التقليدي صفته المهنية المكتسبة في حران لأنه لم يكن أساسا منها ومن ثقافتها) الذي قبله أهل المجتمع المحلي من دون معرفة التفاصيل الدقيقة حوله، لم يستطع أن يتعايش بسلام مع الوافدين الأميركيين. كانوا مختلفين جدا، وكانوا مثل حلم أو خيال. لم يرد التصدي لهم، ولم يرد التعامل معهم تعاملا منفعيا أو مهنيا. أراد الالتصاق بهم والحصول على نسائهم فغرق

في متعة التمعن في أجسادهن، ومن ثم في صورهن. لكنه لشــدة ما أفرط في المتعة، صار يعاني عذابا عزله وفجعه قبل أن يدمره ويقضي عليه.

لم يكن لمحمد عبده موقف ضمن ثنائية التعاطي مع الأميركيين رفضا أو قبولا. تواطأ معهم من دون أن يعلم: فقد أعمته قضية الجنس عن سواها من القضايا التي أثارها وصولهم، وحيدته.

٤٠١٠٢. آكوب الأرمني: الانتماء لحظة التماهي بالضحية

آكوب الأرمني كان الوافد الآخر الى حران التي استوطنها وتعايش مع أهلها قبل وصول الأميركيين إليها. لكن فرقا أساسيا يميز آكوب عن محمد. فهو أولا لم يكتسب اسما مرتبطا بمهنته كما كانت حال محمد، بل اكتسب اسما مرتبطا بجنسيته. وربما كان ذلك لاعتباره أكثر غرابة من محمد (كونه مسيحيا)، أو لأنه أتى من منطقة كانت بدورها قد استــقبلته نازحا. فهو جاء حران من حلب، "لكن أصله من وراء الجبال، من بلدة على بحيرة لم يخلق الله أجمل منها..." (٤)، وحلمه بقي العودة الى حلب أولا والى أرمينيا تاليا. وثانيا، لأن طبيعة عمله لم تسمح له بالاندماج في النسيج الاجتماعي الحراني، إذ إنه سائق يقضي أكثر أوقاته على الطريق بين حران وعجرة، ولا يختلط لفترات طويلة بأهل حران وعمالها.

غير أن المشترك بينه وبين الفران أساسي أيضا. فكلاهما حظي بالقبول والاعتراف من قبل الحرانيين بالرغم من مســلكيات غير مقبولة: محمد في حبه الكيف، وآكوب في شربه "بول إبليس"، أو الخمر كما كان الحرانيون يعتقدون. وبالرغم من ذلك، كانوا ينظرون إليهمـــا كجزء من مدينتهم، وكانوا يتعــاطون وآكوب "كضرورة تزيد يوما بعد يوم، إذ يؤمن المشتريات لهم..." وحتى القادمون الى حران لم يكن بمقدورهم أن ينسوا آكوب، فهو من حملهم إليها(٥).

وثمة نقاط قوة تضاف الى شخصيته، وهي مرتبطة أساسا بمهنته: فقيادة السيارات وإصلاحها ليســتا بالمهمتين اللتين يمكن لأي شخص القيام بهما. وآكوب سائق سيارة شحن كبيرة، تنقل بين العشرة والخمسة عشر شخصا، وباله طويل يعرف كيف يصلح سيارته. كما أنه يتحمل استفزازات راجي، السائق الآخر على الطريق نفسه.

لم تتغير حياة آكوب طيلة سنوات وهو على الخط، يقود سيارة قديمة، وينقل البدو القادمين الى حران بحثا عن ارتزاق وأعمال صغيرة يقومون بها. لكن وصول الشـركة الأميركية غير كل شيء. فبعد انتعاش قصير سببه ازدياد وصول البدو من داخل الصحراء للعمـل في حران، بدأ وصول الباحثين عن فرص اسـتثمار وربح مادي يجنونه من التعامل مع الشركة يصيب استقرار آكوب وعمله. إذ إن رضائي، أحد أوائل الواصلين كما ذكرنا، أنشأ أول ما أنشأ مكتبا للنقل، واستقدم سـيارات جديدة ومن ثم باصات، وراح ينقل الركاب مجانا في سيارات نقل البضائع ومواد البناء.

وبالرغم من إصرار آكوب على الصمود: "البني آدم أهم من الماكينة، وآكوب أقوى من الانترناش والماك، لكن آكوب فقير..." (٦) إلا أنه بدأ يحس بتدهور الأحوال. فبالإضافة الى السيارات الجديدة، كان هو وزميله راجي يتعرضان لمضايقات السائقين الجدد خلال مرورهم على الطريق. وحين حاول راجي التصدي لهم، ردعه آكوب قائلا له أن هؤلاء ليسوا اعداءهم، فالعدو الأصلي هو رضائي صاحب السيارات الجديدة (٧).

ومع تقدم الزمن واسـتمرار تدهور الأحوال، بدأ آكوب يمرض. ثم بدأت سيارته تتعطل باستمرار. "فالسـيارة مثل الكلب، أنا مرضت هي مرضت!" (٨) هكذا كان يردد. ومع ذلك، رفض بيع السيارة لشركة رضائي، وتمسك بها. لكأنه تمسـك في رفضه هذا بروحه وبذاكرته وبحياته القديمة، كما بزميله المهني ومنافسه السابق راجي الذي استحال أخا وحدته وإياه المصيبة فصارا توأمين حقيقيين في حاضرهما ومصيرهما.

وأخذت حـال آكوب الصحية تسوء، الى أن عثر عليه راجي يوما داخل سـيارته في حال احتضار. كان يتنفس بصعوبة والألم يشله، ولم يستطع أحد إنقاذه فأسلم الروح: "مع الأذان تماما خلص" (٩). وثمة دلالة في توقيت هذا الموت: إذ إن آكوب النصراني "المحلي" تحول مع وصول النصارى "الغرباء" (الأميركيين) الى قريب، فكان موته لحظة رفع الآذان تماهيا مع هذا الأذان ومع ما يعنيه لأهل حران. والأمر الآخر ذو الدلالة في موت آكوب هو كون "محمد عبده المختفي، رفض أن يصدق أن آكوب مات..."(١٠) فمن جهة تعانق المختفي (الذي تخيل الحرانيون موقفه) بالميت، ومن جهة ثانية أكد الإثنان الغريبان أصلا عن حران أنهما باتا منها وأن مآلهما فيها واحد.

وفي جميع الأحوال، لم يكن أهل حران في حزن عادي عند موت آكوب. كانت اللوعة تعصف بهم، وكان قهرهم لا يوصف. شيعوه جميعهم، وغسلوه وهتفوا بغضب لا

إله إلا الله. وبالرغم من تبيان أن "الترمس" الذي كان يعتقد أن آكوب يضع فيه خمرا كان بالحقيقة يملؤ قهوة، فإن إمام المســجد رفض الصلاة عليه. لكن "ابن نفاع ومعه كل أهل حران فعلوا ذلك... ونامت حران تلك الليلة والليالي التالية بحزن لم تعرف مثله من قبل. وبعد بضعة أيام كتب فواز بن متعب الهذال على شاهد قبر آكوب: الفاتحة هنا يرقد المرحوم يعقوب الحراني!" (١١).

إذن، كان آكوب، ولغاية وصول الأميركيين، أرمنيا، لذلك اتخذ اسمه نسبا جغرافيا. لكنه مع وصولهم أصبح حرانيا، ومع موته الناجم الى حد ما عن هذا الوصول أصبح شــهيدا حرانيا. تعاطف معه أهل حران لضعفه. كانوا يحبونه ويعتبرونه حاجة قبل ذلك، إذ كان محورا في الحيــاة العامة. لكنه تحول الى ضحية للتطور التكنولوجي ولقدرات المال على تغيير الحياة، فبات مثلهم مستضعفا وعرضة للاجتياح. وفي تلك اللحظة بالذات تحول من وافد الى أصيل، من آكوب الأرمني الى يعقوب الحراني.

٤٠٢٠ رسم المعالم ثم الاجتياح العاصف

نصل هنا الى الفئة الثانية. وقد أسمينا فعلها اجتياحا عاصفا، إذ تأســست على خلفياته وآثاره جميع إشكاليات "مدن الملح".

والاجتياح كان عاصفا لأن مرحلتيه حملتا الى الصحراء جرعات هائلة من التحولات. فمرحلة الاجتياح الأولى (ورافع لوائها الانكليزي هاملتون) كانت هادئة المظهر. لكن آثارها غيرت معــالم الصحراء وقطعت أوصال رمالها، لتنشئ فيها الممالك والدويلات والحدود الجغرافية–القبلية.

أما مرحلة الاجتياح الثانية، فكانت ضارية الى حد أنها جرفت في طريقها كل شيء، بما في ذلك بطل المرحلة الأولى نفســه. فدخول الأميركيين الصحراء عن طريق البحر وتغييرهم شــكل البيئة فيها أثناء عمليات تنقيبهم عن النفط، وإبعادهم كل غريب عنهم، جميعها مهدت لتغيير بنية الحياة في الصحراء التي لم يبق من آثار ماضيها غير حدود أوجدتها مرحلة الاجتياح الأولى.

ولعلنا نفسر فعل مرحلتي الإجتياح على نحو واضح في العرضين التاليين.

٤٠٢٠١٠ هاملتون: المجد الغابر

يشكل هاملتون، أو الصاحب كما كان يسميه السلطان خريبط، حالة خاصة وسط الصحراء. فهو قدم الى الجزيرة العربية بتكليف بريطاني ليسهم في تكوين الدول فيها، وتعامل مع شيوخها وزعماء قبائلها وملوكها، والأهم من ذلك أنه عمل على رسم خرائطها وحدود الممالك فيها: "انتهت مهمتي بوضع الخرائط لحدود بلادكم..." (١٢)

وهاملتون بريطاني ولد في إحدى المستعمرات، وتعلق بالشرق وروائحه وأضوائه، فالشرق بالنسبة إليه "ليس مكانا جغرافيا فقط، أو مجرد ديانات وطقوس، إنه كتلة من العناصر مزجت بطريقة فذة، وربما تدخلت أو غلبت فيها الصدفة". وبعد عودته الى لندن لاستكمال دراسته، اشتاق هاملتون للشرق وقرر العودة إليه من جديد، فقال لأبيه لينـبئه بقراره: "لا يمكن معرفة الغرب من دون معرفة الشرق، ولا يمكن معرفة اللغات الحديثة من دون معرفة اللغات القديمة". وأبوه الذي كان لا يزال يحن بدوره للشرق رحب بقرار ابنه وقال: "خلق الشرق ليكون ملعبا لخيولنا وفرساننا" (١٣). وهكذا، عاد هاملتون الى الشرق وغاص فيه، واستقر في إحدى صحاريه ناسجا علاقاته مع حكامها.

ومع توطد حضوره فيها، بات يمكنه الاضطلاع بمهـام أكثر تعقيدا من مجرد البحث والاكتشـاف. فممالك الصحراء كانت في مرحلة تشكل، وبريطانيـا كانت لا تزال الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. لذلك، كلف هاملتون القيام بدور العراب أو المخرج لعملية تشكل تلك الممالك الصحراوية. فأحس أنه منتدب لعمل خلق من أجله وعليه تكريس حياته لتحقيقه، من دون أن يدفعه هذا الانتداب الى التخلي عن مزاياه الفردية المتناقضة في هدوئها وسلامها الداخلي من ناحية، وعنفها وحقدها من ناحية ثانية.

وقد انعكس هوى هاملتون الشخصي المتقاطع والخطوط العريضة للسياسة البريطانية على مـآل الأمور في جزيرة العرب. فهو من جهة يقدم الشورى للسلطان حول أفضلية ضم المناطق المجاورة سـلما: "وإذا أمكن ضم هذه المنطقة سلما، من خلال استمالة القبائل والشيوخ، أفضل من ضمها بالقوة وحربا. وإذا استطعنا أن نفعل ذلك سرا، أو دون ضجة، أفضل من أن نفعله علنا، أو من خلال إثارة الآخرين" (١٤). ومن جهة ثانية ينصحه بالفتك بالحكام السـابقين وعائلاتهم فور الاستيلاء على ممالكهم: "قرأت في بعض الكتب، يا صاحب الجلالة، أن من يريد أن يضع يده على ممتـلكات جديدة، ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائما أمرين في منتهى الأهمية: أولهما إبادة الأسرة

الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها" (١٥).

وهاملتون تورط في قضايا الصحراء أكثر مما يتورط عادة الديبلوماسيون المنتدبون لصوغ سياسات ما. فقد اعتنق الإسلام، وكان يلازم السلطان (ولذا أسماه الأخير بالصاحب)، ويكتشف من خلاله عالم البداوة وذكاءها الفطري. وكان يشرح له مراد بريطانيا من المنطقة لجهة تفضيلها التعامل مع ممالك كبيرة من دون معاداة باقي الممالك أو حتى إهمالها، مبلورا معه في المقابل ما ينبغي أن يكون عليه مراد أبناء الصحراء من العلاقة ببريطانيا من أجل طمأنتها ولكي يأمنوا جانبها. وقد أقنع هاملتون المسؤولين البريطانيين بضرورة إطلاق يده في العمل على تشييد الممالك الصحراوية. أراد التحرر من أي التزام والتركيز على مهمته: رسم الدول وتغيير الخرائط. كان "يريد أن يمزج التاريخ بالجغرافيا على نحو فريد" (١٦)، على نحو لم يسبقه إليه أحد، وكان يريد أن يساهم في صناعة التاريخ في المنطقة، أو على الأقل تسهيل صناعته. ولم يكن هاملتون يهمل في الوقت نفسه قدرة البدو على تطويع بعض مواقفه ومواقف بريطانيا من خلال إثارتهم حوادث معينة. غير أنه كان يحاذر التورط معهم بأي وعد قبل تأكده من القدرة على تحقيقه. وهذا ما سعى إليه الى أن أتم برغم الكثير من العقبات، "صفقة" ترسيم حدود ممالك الصحراء.

وعلى مستوى آخر، تبنى هاملتون فنر، أحد أبناء السلطان الذي لازم مجالس والده وتفتحت أذناه على الأحاديث والحوارات الدائرة فيها وتعلم الألاعيب السياسية من خلالها. وبالرغم من كونه استصعب مهمة تعليم فنر وتدريبه التي أوكلها إليه السلطان، أحس هاملتون في الوقت نفسه بانجذاب شديد الى أن يكون مرشدا لإنسان مرشح لتولي الحكم، وأن يسهم في تكوين شخصيته ونحتها على نحو ما يريد.

وقد اعتمد هاملتون مع فنر مبادئ مكيافيللي في كتاب "الأمير" وقرأه عليه مرات ومرات. كما عبر باستمرار عن ضرورة تعريضه لأوروبا وللثقافة الغربية التي يمكن، إن هي أضيفت بعقلانيتها المفرطة الى حدة الذكاء البدوي الفطري، أن تولد خامة جديدة من القيادات. ولجأ الى استخدام المقارنة بين البحر والصحراء لشرح ما يريده من وراء ذلك، إذ قال لفنر أكثر من مرة إن فيه من الصحراء الكثير ومن البحر القليل، وإن الوضع المثالي هو في موازنة الصحراء التي فيه بالبحر الذي ينبغي خوض غماره.

وبالفعل، اصطحب هاملتون فنر الى لندن حيث قدمه الى عمته المميزة بفهمها للشرق والى أصدقائه وعدد من المسؤولين، وأمن له زيارات الى أهم المؤسسات والمرافق التي بهرته وسكنت مخيلته.

وهاملتون الذي ســاءه فيما بعد، وتحديدا إثر توطد علاقاته بفنر وتوثقها، أن يختار السلطان ابنه خزعل وليا للعهد، عمل على إقناع فنر بضرورة السعي لإشعار الجميع بأن لا قدرة لهم على القيام بشيء من دونه كي يحكم سيطرته على مقاليد الأمور بعد ذلك ويؤمن انتقال الحكم إليه.

ومع تربع خزعل على العرش، المترافق مع توطد القوة الأميركية وتراجع النفوذ البريطاني وتراكم الثروات في موران نتيجة النفط، قرر خزعل طرد هاملتون من السلطنة خوفا من دعمه لفنر ومما يمكن أن يفضي إليه هذا الدعم. فرحل هاملتون الى لبنان حيث أقام وعكف على كتابة مذكراته. ونشر كتابا حول تاريخ الصحراء، وآخر حول ما ردده المؤرخون المستشرقون من معلومــات خاطئة برأيه، ثم باشر بإعداد مؤلف حول التاريخ الحديث للسلطنة المورانية. فتدخل فنر هنا بالواسطة طالبا منه تأجيل ذلك لئلا يؤدي الى تعقيد الأمور، خاصة أن ثمة انقلابــات وتعديلات قد تجري. ووافق هاملتون شرط أن يلتقي به فنر ويشرح له طبيعة تلك التبدلات.

وهنا، وصف هاملتون ما جرى مع فنر في تلك المرحلة، مقيما تجربته الصحراوية، فقــال: "لو أتيح لي أن أبدأ من جديد لبدأت بشكل مختلف، خاصة بعلاقتي مع فنر. فهؤلاء البدو، في لحظة معينة، يصبحون شــديدي الخطر، وهذه اللحظة التي تموه نفسها كثيرا، وقد تأخذ عدة أشكال، هي لحظة إحســاسهم بالقوة وأنهم ليسوا بحاجة إليك" (١٧).

ومع انقلاب فنر على خزعل وتتويجه سلطانا، لم يبعث وراء هاملتون كما وعده، بل حرص على تجــاهل وعده وتركه وحيدا في لبنان ينتظر دعوته الى حيث يرى أنه قدم طوعا أجزاء من نفســه ومن عمره: "فنر الذي بدا خجولا، متعثرا، والذي أخذ يتعلم بجهد، وقد بذلت من أجل ذلك كل جهدي ووقتي، أراه الآن إنسانا مختلفا... بدا لي خلال الأيام الثلاثة، وكأنه يطبق علي الوصايا والأســاليب التي تعلمها مني، وزاد عليها ما تعلمه من الآخرين" (١٨).

يمثل مآل هاملتون، بعد أن كان أحد راسمي معالم الصحراء جغرافيــا وتاريخيا، عمق التبدلات التي أحدثها الانقلاب الأميركي النفطي من ناحية، وتبدل موازين القوى

عالميا من ناحية ثانية لجهة انكفاء دور الأسد البريطاني لصالح الدولة الأميركية. وترتبط هذه المســألة، كما سبقت الإشارة، بتاريخية "مدن الملح" وتوثيقها لجوانب من التحولات التي أصابت الأدوار الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لأبرز اللاعبين التاريخيين في الجزيرة العربية.

٢٠٢٠٤ الأميركيون: الاجتياح العاصف

إذا كان من ذروة ما في أي رواية، فإن الذروة في خماسية "مدن الملح" هي في جزئها الأول "التيه"، وتحديدا لحظة وصول الأميركيين الى "وادي العيون" وما تلاه من اجتياح للصحراء من خلال شركات النفط التي أنشئت أولاها في حران (ولي عودة الى ذلك في الفصل السادس).

فمنذ ظهورهم، سبب الأميركيون انقلابا في الحياة اليومية لأهل الصحراء. بداية في "وادي العيون" مع متعب الهذال، وبعد ذلك في حران من خلال شركة النفط خاصتهم. ثم تتابعت فصول هذا الانقلاب بعد ذلك حين استتبت الأمور في موران وتعاظمت الاستثمارات المالية والسياسية.

والأميركيون منذ لحظة ظهورهم تلك كانوا جماعة. لم يكونوا شخصا بل كانوا شخصية جماعية، وبدوا أصحاب اختصاصات ومهــام محددة. وما أثار في إطلالتهم الأولى كانت أسئــلتهم، وتحديدا ذلك السؤال عمن سبقهم من أجــانب آخرين الى المنطقة، من إنكليز وفرنسيين خاصة، إذ فيها ريبة وخشية من منافسين آخرين لهم. وهنا يجدر تذكر إشــارة كان هاملتون قد أثارها، ومفادها أن الأميركيين "أكثر جرأة وأبعد نظرا، وليس هناك تناقض في المصالح بينهم وبين بريطانيا" (١٩). فتلك الإشــارة تلت لقاء بينه وبين أحد المسؤولين الأميركيين الذي أراد توسيطه من أجل الدخول الى الصحراء حيث الثروات على ما بدا كبيرة. ولم يقدر هاملتون يومها حجم الإنقلاب الذي سيحدثه الأميركيون إن هم دخلوا، ولم يســتوعب أن قوتهم المتعاظمة قد تجرف الجميع بمن فيهم "الحلفاء". من هنا يأتي سؤال الأميركيين عن مرور أجــانب آخرين غيرهم في الصحراء ليؤكد حذرهم وإرادتهم ألا يشاركهم أحد في ما هم مقدمون عليه.

وبعد إطلالتهم الاولى في "وادي العيون" وتماسهم مع الناس هناك، اختار الأميركيون أعوانا لهم، وباتت علاقاتهم بالناس الآخرين تتم بواسطة هؤلاء الأعوان.

غير أنهم كانوا حين يضطرون للتواصل المبـــاشر يقومون بذلك بلطف ورقة بالغين، أو بحشرية وحب اكتشاف واستمتاع بكل جديد.

وفي المقلب الآخر، لم تعد نظرة أبناء الصـــحراء الى الأميركيين نظرة ريبة، بل تأكدت تلك الريبة وبات من البديهي الانطلاق منها نحو مشاعر أشد تعقيدا: فمن جهة ثمة انبهـــار يلامس حدود الحسد، ومن جهة ثانية ثمة حقد ورغبة في التعبير عن هذا الحقد. يضـــاف الى ذلك في الحالين شعور بالأسى العميق والحزن والاختناق، خاصة بعد أن بنيت الشـــركة النفطية في حران وبات الأميركيون مستقرين في جوارها: "وكان الضيق أقوى ما يكون حين ينقل العمال نظراتهم من جهة الى أخرى، فيرون في جهة الشرق حران الأميركان: مضيئة، لامعة، ضاجة، وبدأت تكتسي بالخضرة، ويســـمعون عن بعد أصوات الأميركيين وهم يصخبون في البرك، وهم يضجون بالغنـــاء أو المرح، وفي بعض الليالي يطلقون الأسهم النارية الملونة فتملأ الســـماء، خاصة أثناء استقبال مجموعات جديدة. فإذا نظروا الى جهة الغرب ورأوا بيوت أهل حران وقد انبعث منها الدخـــان عند الغروب، وامتلأت بأصوات البشر والحيوانات، وأخيرا إذا نظروا الى البركســـات التي يعيشون فيها، والى هذه الحياة الجافة القاسية المعزولة، فعندئذ تدفق الذكريات ويزحم قلوبهم الحنين، ويجدون أســـبابا لا حصر لها للخصومة والحزن، وبعض الأحيان للبكاء" (٢٠).

ومع مرور الوقت، لم يعد الأميركيون يملأون المشهد، بل تراجعوا تاركين في الواجهة المجتمع الذي تحول وتغير ونتج عن حضورهم، أو اجتياحهم. وأصبحت إطلالاتهم تنم على ندرتها عن ضبطهم مفاصل الحياة العامة في موران "الجديدة". وبقي هذا الضبط مســـتندا الى حضورهم الجماعي والى تدخلاتهم كقوة وليس كأفراد، حتى حين كان رجال الأعمال منهم يتمون الصفقات، فقد كانوا مجموعات، وحين حاول أحدهم التفرد أقصي وسقط.

وتحولوا بعد استقرار موران على واقع حالها الجديد الى قوة أيضا تراقب الســـياسة وتتدخل في خطوطها الرئيسية. فها هم ينظمون الجهاز الأمني لموران من خلال دورات تدريبية لحماد، مسؤول المخـــابرات المورانية، ويدعونه الى الولايات المتحدة للانخراط في الأعمال هناك وتعلم اســـتخدام التقنيات والآلات الحديثة. وها هم يطبعون في ذاكرته مشـــاهدات لن يقدر على نسيانها مهما طال الزمن.

والأميركيون تابعوا أيضا، وعن كثب، نشوء صحافة وإعلام في موران. فاستقصوا عن ماضي جميع الصحافيين الذين وفدوا للعمل، وأبدوا تحفظا على ماضي بعضهم (كما حصل مع سـمير قيصر)، فكانوا أيضا مسهمين في الصحافة الجديدة وفي ما سيصدر عنها من مواقف. حتى إن السفارة الأميركية في موران كانت تشـير في مذكراتها الى بعض المقالات التي تراها غير متلائمة مع توجهاتها وتبدي احتجـاجا عليها. فإما أن يرحل كتابها، وإما أن يعودوا فيكتبوا مقالات أكثر ملاءمة للمراد الأميركي. يضاف الى ذلك أن المواعيد التي كانت تطلبها الوفود الأميركية القادمة الى موران لإتمام الصفقات شملت جميع مراكز النفوذ الموراني (السلطان والحكيم ووزيري الداخلية والدفاع إضافة الى قائد الجيش ومسؤول المخابرات).

وفي مقابل دخولهم الجارف هذا، لم تسجل سوى حالة مقاومة وحيدة في وجه الأميركيين في موران، بعد أن ظهرت حالات أخرى لها طابع رمزي في حران (٢١) وتمثلت الحالة المورانية بعملية توزيع منشـورات، خلال حفل الاستقبال الذي أقيم في أحد الفنادق بمناسبة توقيع معاهدة لتزويد الولايات المتحدة السلطنة بالسلاح. وتضمنت تلك المنشورات تعريضا بالسلطة المورانية والمعاهدة والأميركيين. وبالرغم من أن توزيع المنشورات هذا لم يعد كونه مشـاغبة لا أفق لها، وتعبيرا عن الرفض للتحالف الموراني الأميركي وللملتزمين به، إلا أنه عبر عن وجود تيار سياسي كان حاضرا في الشارع الموراني، وكان نجم ونمر ابنا شمران العتيبي ممثليه كما نتبين عند إلقائهما في السـجن والقول إنهما خطيران يريدان دم السلطان ورجاله.

وبكلام آخر، لم يسـتطع أحد، منذ بدء الدخول الأميركي الى الصحراء من خلال الشركة النفطية ومن خلال القنوات الديبلوماسية والأنشطة المخابراتية والصفقات العسكرية، أن يتصدى لهذا الدخول أو أن يحاول عرقلته. كان دخولا مجتاحا لا سبيل لمقاومته أو مواجهته لأنه تسلح بسلاح الإبهار بداية، وسلاح المال والسلطة والقوة بعد ذلك.

يبقى أنه رغم كل الانصياع الذي أبدته السـلطة في موران للأميركيين، إن مع خزعل أو مع فنر، بقي شعور عدم الاطمئنان إليهم قائما. وقد عبر عن ذلك السلطان فنر حين قال خلال الحرب مع الدواحس: "الواحد ما يتعلم إلا من كيسه... وهذول الأميركان،

مع أنهم أصحابنا، إلا أنهم ما يتأمنون، براسهم ألف سالفة، وجماعتهم من هنا لهناك، ومثل ما يسولفون ويانا يسولفون وياهم، وما يندري!" (٢٢)

بذلك، يكون الاجتـــياح الاميركي قد شكل فتحا مبينا وأحدث من خلال النفط ثورة في الجزيرة العربية لا تقل مفاعيلها وآثارها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، بحسب منيف، عن ثورة الإســـلام قبل مئات السنوات (٢٣).

الفصل الخامس

إنتصار البحر في غوايته وطوفانه

"... وبعد مسيرة خمسة أيام أشرفوا على البحر. حيث توقفوا ونظروا، فوجئوا الى درجة عدم التصديق: مياه... مياه لا نهاية لها، مياه على مدى البصر، إنه البحر! البحر كالصحراء بامتداده واتساعه، وبمجرد النظر الى هذه الكمية الهائلة من المياه يصاب الإنسان بالفرح والخوف معا. لم يكن أحد ليفكر أو يحـلم أن في مكان من العالم هذا المقدار الهائل المخيف من المياه: من أين أتت؟ هل جاء بها السيل أو نبعت من باطن الأرض؟" (١)

يلخص هذا المقطع، الوارد في الجزء الأول من الخماسـية "التيه"، حال أهل الصحراء لحظة ملاقاتهم البحر. كانوا فرحين لحبهم المياه وتوقهم إليها، ومذعورين من كثرتها وكثافتها. وهذه الثنائية في مشاعرهم البالغة حد التصارع بين الحب والخشية، أخذت في التمدد فيما بعد لتتأسس عليها ثنائية أكثر تعقيدا وتداخلا. فالبحر لم يبق صامتا مثل أهل الصحراء وهم يراقبونه، بل تحرك. وولد حراكه المستمر ما لم تكن مخيلة الصحراء وأبنائها تتوقعه. إذ انبعثت من قلب البحر قوالب أذهلت الصحراء وبهرتها قبل أن تقتحمها.

فمن البحر وصل الأميركيون بمعداتهم وآلاتهم الجهنمية، ومن البحر أيضا وصلت نساؤهم بالغواية والسحر. ولم يكتف البحر بتغيير واقع الصحراويين، بل غير أحلامهم أيضا. أيقظهم وشد أعصابهم وأدخـلهم في حالة من الأرق الدائم أشبه ما تكون بالهلوسة. فهم لم يستطيعوا تحمل رؤية السيارات وهي تثب فوق الرمال مسرعة مثيرة الغبار من حولها، ولم يخطر ببالهم أن تسـتطيع قطع بحجم البواخر التي رأوا أن تطفو فوق سطح البحار وأن تقام على متنها الحفلات وتنبعث منها الموسيقى والألعاب النارية. والأخطر من ذلك، أنهم لم يدركوا أن ثمة نسـاء بيضاوات شـقراوات كمثل اللواتي حملتهن البواخر يمكن أن يكن شبه عاريات على نحو ما كن عليه. إستحالت أحلامهم كوابيس تعذبهم، وأصبح انبهارهم وخوفهم حزنا لا يفارقهم.

من هنا، لم يكن البحر بما يحتويه من أمواج لا تهدأ وحياة لا تنضب وتجدد لا يتوقف قادرا، لحظة معانقته الصحراء، على خلق جدلية تتلاقح فيها المعطيات المتناقضة. فالصحراء الثابتة لم تتحول مع وصول الأمواج البحرية العاتية إليها الى ولادة حياة أو معان جديدة. بل على العكس، اضطرت أمام هول الاجتياح الى الانكفاء والانزواء على نفسها كما حصل في حران، أو تعرضت للتدمير وشهدت التحول الى شيء آخر لا يشبه إلا نفسه كما جرى في "وادي العيون" الذي أزيل تماما من الوجود.
وبسرعة، تماهى البحر بمن حملهم، وأصبح بالنسبة للصحراويين "أميركيا". أما الصحراء فلم تحسن التماهي بأحد وبقيت صحراء، ولكن من دون روح.

أخذ البحر من الصحراء ما شاء، وأعطاها ما شاء هو أيضا. فتأسست في هذا التبادل ثنائية الانتصار والهزيمة.

ولم يكن الانتصار وليد لحظته، بل كان قد تأسس منذ ما قبل وصوله واجتياحه. فأصحابه كانوا يحملون، في كل مرة يخرجون فيها من بواخرهم أو مقارهم ويفدون الصحراء، كتبا تدهش الصحراويين وتخيفهم الى حد الاعتقاد أنها كتب مسحورة لفرط ما فيها من معلومات دقيقة ومعرفة بالصحراء ولغاتها وتقاليدها وتاريخها وأسماء مواقعها. وأكثر من ذلك، لكونها تروي ما لم يكن يحفظه إلا قلة نادرة من أهل الصحراء: "أهل حران عجبوا أشد العجب لأن في هذه الكتب أشياء كثيرة يعرفونها، من إسماء الأمكنة والعشائر... الى مواعيد الأمطار والرياح وهجرة الطيور... كانت الكتب التي يحملها الأميركيون تثير الدهشة والخوف معا..." (٢)

ومع تكرس الهزيمة، انتقل الصراع الى داخل المعسكر المهزوم. فالمواجهة لم تعد بين صحراويين وبحريين، بل أصبحت بين صحراويين وصحراويين آخرين حاولوا تلبية نداء البحر علهم ينجون ويشاركونه الانتصار.

إلا أن المآل كان في الحالتين واحدا: المزيد من الحزن والضياع والهزيمة، والمزيد من النسيان. فرغم جميع التغيرات والأحداث واليوميات، كانت حران (ومثلها موران فيما بعد) تنطوي على ذاكرتها، فتمحو علاقاتها وناسها وتسقطهم في غياهب النسيان، لأن تسارع الأحداث منذ الغزو البحري لم يسمح مرة بمراكمة الذكريات ولا بالتصدي المنظم والمقاومة. فهذا ابن الراشد فقد صوابه وجن، وذاك دحام ذل وضرب، ناهيك بنسيان محمد عبده وغيابه. حتى الثورة العمالية والانتفاض على الشركة النفطية

وحماتها لم يستطيعا أن يدوما أو يغيرا ما رست عليه الأمور. كانا محاولة رد اعتبار لكرامة مهدورة وهزيمة خانقة. لذلك لم يكونا ليتوجا بأي إنجاز نوعي.

ولعل المقاطع التالية المأخوذة مما كان هـــاملتون يقوله للأمير فنر تزيد صورة الصراع البحري-الصحراوي ومآله وضوحا: "إنك يا صاحب السمو، بحاجة الى كمية كبيرة من البحر... لكي توازن هذا الكم الهائل الذي لديك من الصحراء!... فالبحر، يا صاحب السمو، ليس المياه والزرقة والأمواج، إنه فلســفة كاملة، تبدأ بالخوف ثم التأمل وأخيرا التواصل. والتواصل يشكل قاعدة المثلث، لأن الصحراء تشـــترك مع البحر في الصفتين الأخريين، إذ بمقدار ما تثير الصحراء الخوف في حـــالات معينة، فإنها بعد أن يزول الخوف، تحمل الإنسان على التفكير والتأمل، وتوحي له بالكثير، لكنها، مع ذلك، تضع بينه وبين الآخرين سدا. وهي بمقدار ما يمكن أن تكون حماية ضد الغزاة والطامعين، فإنها أيضا سجن للقاطنين فيها، فهي تعزلهم عن الآخرين، وتجعلهم يولدون ويعيشون ثم يموتون وحيدين وبعيدين.. إلا في حالات قليلة ونادرة، حين يتوافر الرجال الشـــجعان، والظروف المواتية. عندها يمكن أن تكسر قضبان هذا السجن، وينطلق الســـجناء الى الخارج، حاملين صفاءهم وتأملاتهم وإرادتهم المديدة الصلبة، وقد ازدادت قوتهم حين امتحنوا بقطع هذه الصحراء... لا أريد أن أفسد الفطرة التي يتمتع بها ســـكان هذه الصحراء، وربما كان جلالة السلطان نموذجا لها، وحتى لو أردت قد لا أستطيع. وأعرف أن لديك من روح الصحراء فيضا يزيد عما تحتاجه، أو عما هو مطلوب في مثل العـــالم الذي نعيـــش فيه اليوم، كل ما أفترض أنه ضروري، لكي تولد المعادلة الجديدة، أن يكون في قمة الهرم بحارة شجعان كسروا قضبان سجن الصحراء وانطلقوا، عبر البحر، وليس عبر صحارى أخرى، لكي يمثلوا نموذجا، يحتاجه هذا العصر" (٣).

من هنا، تبرز الحاجة ربما لدراسة شخصيتين في "مدن الملح" تحتويان ثنائية البحر والصحراء للوقوف على جديدهما ومصيرهما. فهل من جديد في ما جسداه؟

فنر: سقوط الموزانة بين الصحراء والبحر

لم تسلك شخصية فنر في تكونها مسارا كلاسيكيا، أو مسارا مألوفا في الصحراء. وهو لم يكن أساسا إنسانا عاديا.

ففنر، الأبن الثاني للسلطان خريبط بعد خزعل، تميز منذ صغره بالذكاء الحاد والهدوء والصمت وحسن الإصغاء. وهو، بالرغم من ضعف بنيانه الجسدي ومرضه وتعلقه باخته موضي وبأخوال أمه، عشــق بعد أن انتقل للعيش في جوار أبيه مجالس السلطان وما يدور فيها من أحاديث وروايات وقصيد من ناحية، وما يبحث فيها من قضايا عسكرية وتخطيط للحروب وتشييد الملك الصحراوي من ناحية ثانية.

وفنر أثبت منذ حداثة سنه حنكة وحكمة وقوة من خلال تعاطيه مع التطورات العسكرية والتوسع الجغرافي لسلطنة موران، وأيضا من خلال تعامله الحازم مع خاله عمير المنتفض ضد السلطان خريبط والمحرض عليه.

غير أن نقطة التحول الأساسية في حياة فنر كانت لقاءه بهاملتون. فهاملتون حضنه وقام بتدريبه وتثقيفه وأمن له سفرا متواصلا الى إنكلترا، فضلا عن قراءته المتمعنة معه كتاب "الأمير" لمكيافيللي الذي سيطر على عقل فنر ومخيلته فحفظه عن ظهر قلب.

ويقول هاملتون للسلطان خريبط في إشارة الى تفضيله فنر على ابن السلطان البكر خزعل: "الإنسان إذا سافر، إذا اطلع واحتك بالآخرين، يمكن أن يكتسب معارف جديدة. والبحر بطبيعته وســيلة الاتصال الفعلية، وبريطانيا، حين كانت معزولة في تلك الجزيرة لم تســتطع أن تفعل شيئا، أما عندما ركب أبناؤها الشجعان سفنهم وانطلقوا، فقد تغيرت الأمور جميعها، أصبحوا يحكمون العالم كله، العالم القديم والعالم الجديد. ومن هنا اعتبر أن موران يجب أن تلتفت الى البحر، أن تنتظر منه وأن تنظر إليه باستمرار..." (٤)

غير أن الظروف شاءت أن توكل مقاليد الحكم الى خزعل، فأصيب فنر بخيبة أمل كبيرة. وأكثر إثر ذلك من أسفاره متنقلا بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة. وهناك بهر بالجبروت الأميركي، واقتنع أن الإنكليز كانوا أسودا لكنهم باتوا بلا أنياب. لذا، وطد فنر علاقاته بالأميركيين، واقتنع منهم بأن الخطر على سلطنة موران بات يأتيها من الشرق، من روسيا.

ومع الوقت، راح فنر ينسج علاقاته برجالات حكم أخيه، مستفيدا من "البحر" الذي اكتسبه، ومن الأســفار التي خاضها، ومن محفوظاته من حكم "الأمير" ووصاياه. وراهن على أن الصحراء المسيطرة بالكامل على أخيه لا بد ستقوده الى التهلكة. فتحين فرصة تراكم السقطات الصحراوية، وتزايد النقمة على خزعل وحكمه وغبائه المستفحل، لينفذ انقلابه ويستعيد ما كان يعتبره حقا مسلوبا: العرش.

وهكذا، وصل فنر الى السلطة، وتوج سلطانا. فجعل زاده كتاب ماكيافيللي، "الأمير"، وقطع الوعد بالتغيير تلو الوعد، ثم حنث بكل ما قطعه من تعهدات مرددا ما أورده ماكيـــافيلي "وعلى الحاكم المتبصر أن لا يحافظ على وعوده، عندما يرى أن هذه المحـــافظة تؤدي الى الإضرار بمصالحه، وأن الأســـباب التي دعته لإعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة" (٥).

وراح فنر يمـــارس ضروب السلطة على أشكالها. وتخلص من جميع خصومه بأساليب مختلفة: النفي والسجن والقتل أو العطايا والتقديمات وشراء الصمت. كما تخلص من العديد من الأمراء بواسطة حوادث السير التي "شجع" على حدوثها: "... طويل العمر هو اللي دفر أولاد خزعل... عطاهم سيارات تسابق الريح، وقال: تسابقوا، وخلنا نشوف من يسبق. وقال لابن المطوع لا تتدخل: إذا تسابقوا، إذا تناطحوا. اتركهم بدماهم إذا صار شي" (٦). ولم يكتف بذلك، بل طبق تعاليم "الأمير" حتى على من أهداه إليه: هاملتون. إذ حرص على إبقائه مبعدا وتجاهله وتركه يموت.

وعني فنر عناية خاصة بتطوير جهاز المخابرات المورانية وتوزير قائده حماد، وباستخدام الصحافة لتمتين حكمه. فطلب منها إلهاء الناس في الداخل بقضايا الخيل والرياضة والاحتفالات، والتعاطي مع القضايا الخارجية على أساس جعل موران على كل لسان: "الدنيا حولنا يا يونس، تغلي، والناس ذبحهم الحســـد، وموران ما هي بعيدة، فيلزم نتغدى أعداءنا قبل ما يتعشون بينا.... قال يونس بفخامة: البدو أصل العرب، فإذا ذل البدو ذل العرب، وإذا ذل العرب ذل الإســـلام. قال السلطان بفخامة مماثلة: موران أصل البدو، وحنا أصل العرب، والإسلام بلانا ما هو بشي..." (٧) وبالرغم من كل ذلك، لم يستطع فنر أن يستمر. فقضى نتيجة ثأر، وراح ضحية شكل ممارسته السلطة القمعي.

وإذا كان فنر، وبالرغم من تحوله مع استلامه الحكم الى ما يشبه أخاه، قد عبر عن تميز ما عن أترابه وآله وقومه الصحراويين، فإن معنى اسمه لا يبتعد كثيرا عن هذا التميز النسبي. لأن الفنر هي المنارة، أو هو المشعل، أو القرطاس الذي يجعل كالأنبوبة ويوضع في أســـفله بلبلة تركز فيها الشمعة فلا تصيبها الريح. وفنر كان منارة في علمه ومعارفه، لكنه كان أيضا، ككل إنسان، كالمشعل يذوب ولا بد أن ينطفئ.

حماد: عود على بدء

من ناحيته، سلك حماد (قائد جهاز المخابرات المورانية) طريقا لا يختلف كثيرا عن الطريق الذي سلكه فنر، ولو أن نقطة الانطلاق لم تكن ذاتها.

فحماد بن المطوع من عائلة تملك الأراضي والخيل في موران وتفتخر بها. وكان صاحب شخصية خاصة، ومزاج خاص. فهو لو "ولد وعاش في مكان غير موران، أو في وقت غير هذا الوقت، لأصبح قائدا عسكريا أو رساما، وربما صار رئيسا لعصابة من مائة شخص، أو ربما مات أو قتل وهو في العشرين... أما لماذا يمكن أن يكون قائدا عسكريا أو رساما، فبسبب تلك النزعة التي تميزه للسيطرة، أو لإعادة تشكيل العالم وتنظيمه... ولم تكن الأرض تعني حماد إلا بمقدار ما تقربه لما يحلم به، رغم أن هذا الحلم كان غائما ومشوشا الى أقصى حد، فقد كان يبحث عن تجربة جديدة أقرب الى المغامرة، ولا يعرف لماذا تصور أو افترض أنه إذا اقترب من القصر يمكن أن يحقق هذه المغامرة" (٨).

وحين اختاره الحكيم المحملجي في عهد السلطان خزعل لتكوين جهاز شرطة سري يسهر على أمن النظام الموراني وسلامته، كان مرتبكا خائفا مسلما نفسه بالكامل الى الحكيم وسطوته.

لكنه أخذ شيئا فشيئا يتخلص من ارتباكه وخوفه المذكورين. وكانت نقطة التحول الجوهرية أو المفصلية في حياته سفره الى الولايات المتحدة للتدرب على العمل المخابراتي وعلى المعدات التي يمكن اللجوء إليها في عمل كهذا. وعند عودته رئيسا لجهاز الأمن والسلامة، كان قد أصبح إنسانا آخر: فهو "لم يتغير على أهله وأصدقائه فقط، تغير على نفسه أيضا" (٩). أصبح أميل الى الصمت، حذرا يغير من عاداته ومواعيده، ويستخدم أسماء مستعارة وجوازات سفر متعددة مسافرا باستمرار لاكتشاف العالم. طلب المال لينفقه كعنصر حماية، وأصبح يتلذذ بإنفاقه. وعرف كيف يكون محبوبا ومرهوبا من معاونيه في الوقت عينه، لأنه يستمع ويأمر ويعطي ويسهل الأمور ويعرف ماذا يريد. وكان يستخدم أساليب بوليسية في التعاطي مع أي قضية. فردا على الانتقادات التي تعرض لها إثر إهماله صالحا الذي شتم الحكيم والأميركيين ليلة توقيع المعاهدة المورانية-الأميركية لتسليح جيش البادية، اعتبر أن "الطريدة إذا اطمأنت وشعرت بابتعاد الخطر يكون صيدها أسهل، أما الغشيم فلا يصيد ولا يخلي غيره يصيد"(١٠). ومقابل تساهله أحيانا، كان يتعاطى مع التهديدات السياسية الأكثر جدية بحسم وقسوة لم تشهدهما

موران من قبل، إن لجهة الاعتقالات وعمليات التعذيب لانتزاع المعلومات، أو لجهة مراقبة "المشبوهين" والتنصت عليهم.

وفي الوقت عينه، كان حماد شـــريكا أساسيا في عملية الانقلاب التي نفذها فنر ضد أخيه خزعل. وهو تنكر بذلك للحكيم الذي أتى به وعينه، وللسلطان نفسه الذي رعاه وأمن له جميع مطالبه.

وفي عهد فنر، أصبح حماد أكثر قوة. إذ عين وزيرا للداخلية، فأحكم قبضته على مقاليد الأمور، وقمع أي تحرك أو تململ رأى فيه تهديدا لاستقرار الدولة، الى أن قال فيه عمه: "ابن أخوي يريد النـــاس جيران مقبرة: لا يتكلمون، لا يتزاورون، ولا أحد يعرف الثاني، لكن هذي موران: إذا الواحد ما طلع اللي بقلبه يموت حسرة أو يهج..." (١١)

وبالرغم من كل تفانيه في خدمة فنر، لقي حمـــاد جزاء من يفيد إضعافه لتخفيف الاحتقـــان، فنزعت منه حقيبته الوزارية وأرسل سفيرا الى اليابان حيث راح يتحسر على مصيره.

بذلك، يكون حماد قد ســـلك مسلك فنر نفسه. فهو تخطى جوهرا، رجل الأمن البدائي المنتمي الى عصر ولى، كما تخطى فنر أخاه خزعل وطبعه البدوي الفج. وأســـباب التخطي لم تكن مختلفة: حسن الإنصات والحلم والأسفار الكثيرة واكتشاف الولايات المتحدة الأميركية! وحماد انقلب مع فنر على السلطة القديمة التي كان من أركانها، وتخلص ممن أوصله (الحكيم) كما تخلص فنر من أستاذه (هاملتون). وفي النهاية وقع ضحية شراسته وقبضة حكمه، فأقصي وأبعد، في حين قتل سلطانه.

ولا يعكس اسم حماد المطوع صفاته، بل على العكس من ذلك، يعكس ما قد يكون نقيض تلك الصفات. فحماد كصيغة مبالغة (تظهر كم الحمد الذي لا ينقطع) بعيدة كل البعد عن أطباع "حمـــادنا". والمطوع كاشتقاق مرتبط بمعنى الطوعية والتطوع والمطواعية بعيدة أيضا عنه. وربما كان هذا المقصود من تسميته كذا. فإعطاؤه ما ليس له عملية تماثل دوره في الرواية كعنصر مخابرات متعدد الأسماء والهويات.

في ختام هذا الفصل، لا بد من العودة الى نص "مدن الملح" الذي عبر بكثافة وأناقة عما يلخص أشد الجدليات التي أثارتها الشخصيات والأحداث والصراعات تعقيدا، والذي يقول النـــاس ما "تريد" الخماسية أن يقولوه في السياق التاريخي ومآله:

"وإذا قال عدد من المسنين في السوق العتيق: باطن الأرض خير من ظاهرها، فإن السجناء كانوا أكثر مرحا، وأكثر تفاؤلا، وكانت لياليهم لا تخلو من ضحكات صاخبة، وغالبا ما تزعج الحرس، فتبدأ بعد الضحكات معارك الليل!.

وقالوا: الأغنياء يزدادون غنى والفقراء فقرا.

وقالوا: اختلطت الأمور، واختلت المقاييس، فلا أحد يعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ، ما يجب أن يفعله، وما يجب أن يجتـــنبه.

قال المسنون: آخر الزمان.

وقال المعتوهون: المطر والماء والسماء.

وقال العقلاء: اصبروا، فالصبر مفتاح الفرج.

وقال الشجعان: ليس بعد الصبر إلا القبر.

وقال الفتيان: كانت موران جنة ولا بد أن تعود.

قال راكان: اعتقلوا، واقتلوا، ثم حققوا.

قالت وداد الحايك: لا بد أن نسافر، لأن الحسد ملأ القلوب.

قالت فضة: الأمل كله براكان.

قال مساعد لزوجته الجديدة: وبعد فنر راكان، وبعد راكان كليمك.

فضحكت الزوجة وقالت: عساها ما تطول" (١٢).

لقد جمعت هذه الفقرات عددا كبيرا من الشخصيات. فعوض وصف الأحداث على نحو مباشر، شرح عدد من بشـــر "مدن الملح" ووافديها ما جرى لهم ولمدنهم بعد الرسو "النهائي" للأحداث وتحول نتائج صراع البحر والصحراء الى واقع اجتماعي يعيشون تفاصيله.

لكن السؤال ظل رغم كل ذلك مطروحا: إذا كانت "مدن الملح" قد قامت مع ظهور النفط، فهل هي ستذوب عند نضوبه؟

الفصل السادس

خماسية "مدن الملح" كعمل فني

شكلت "مدن الملح" منعطفا في نتاج عبد الرحمن منيف الروائي، نظرا لضخامتها (٢٤٤٥ صفحة)، وللجهد التوثيـقي والبحث التـاريخي اللذين تضمنتهما، ولحشد الشخصيات (أكثر من مئة شخصية، وإن كان جلها ثانويا)، ولطول الفترة الزمنية التي غطاها العمل (ما يزيد على النصف قرن)، وولوجه عالمـين (النفط والصحراء) لم يكن قد عالج تداخلهما أحد على هذا المستوى من الاتساع والدقة والتعمق من قبل.
كما أنها جسدت جهدا استثنائيا قام به منيف لإبقائها متماسكة في بنيتها الروائية من خلال ربط أوصالها بعناصر فنية، هي ما سندرس في هذا الفصل.

٦٠١٠ قضايا فنية من الخماسية

لعله من المفيد، قبل البدء في معالجة النواحي الفنية الخاصة بالأسلوب واللغة وبناء الشخصيات والبعدين المكاني والزماني، التطرق الى بعض القضايا الفنية التي اعتمدها عبد الرحمن منيف في بناء خماسيته.

٦٠١٠١٠ *إتمام المعنى الروائي في كل جزء*

أعلن منيف أنه لم يكن يعرف كم سيكون عدد أجزاء روايته ولا كيف ستنتهي: "لم أقرر بعد أن يكون ثلاثية أو أكثر. إن تطور العمل ومتابعته، هما اللذان يحددان في النهاية حجمه وأجزاءه..." (١)، على أنه عمد الى إتمام المعنى الروائي في كل جزء على نحو يمكن معه الاكتفـاء بقراءة الجزء الواحد للوقوف على الواقع الاجتماعي الذي تصوره الخماسية. فيمكن أن تفهم أحداث كل جزء بمعزل عن أحداث باقي الأجزاء، إذ انها تنطلق من نقطة ما مع بداية كل جزء لتنتهي في نقطة أخرى ضمن الجزء نفسه. ويجوز استثناء الجزء الرابع من الخماسية الذي تدور أحداثه في "المنفى" في ألمـانيا من هذه الملاحظة، فهو مختلف جغرافيا عن باقي أجزاء الخماسية (وإن حافظ على قالب البـداوة في مكان

خارج الصحراء هو بادن بادن، كما أنه مرتبط عضويا بسياق الأحداث التي سبقت تشكله).

٦ . ١ . ٢ . تسلسل أجزاء الخماسية

يمكن القول إن "مدن الملح" بدأت بجزأين ("التيه" و"الأخدود") متتابعين زمنيا، ومتواصلين حدثا وبشرا وقالبا روائيا، مع فارق أساسي بينهما في المستوى الفني، إذ يأتي الأول غنيا بالرموز والجماليات الصورية في حين يجيء الثاني وصفيا تقريريا، وهمـــا يؤرخان لظهور النفط كحدث مزلزل اجتماعيا ومكون لمدن وعلاقات جديدة. ثم تلاهما جزء ثالث ("تقاسيم الليل والنهار") فيه عودة تاريخية إلى الوراء (فلاش-باك) تؤرخ لقيام السلطنة حيث تفجر النفط وما تخلله من حروب وأحداث. وترافقت هذه العودة التاريخية مع تغير في نمط الأحداث وشكل التعـــامل مع الزمن، يتحول معه العمل الروائي الى عمل تاريخي يعرض أحداثا في قالب قصصي. ثم يكمل الجزء الرابع ("المنبت") أحداث الجزء الثـــاني ويتشبه به من حيث التقريرية في التعاطي مع الحدث ورسم الشخصيـــات. أما الجزء الخامس والأخير ("بادية الظلمات")، فيتضمن في مشاهده أساليب ظهرت في جميع الأجزاء السابقة وانعكست على مستوياتها الروائية، إذ فيه عودة الى الجزء الأول من خلال صوره ورموزه، والى الجزأين الثاني والرابع من خلال وصفه ومتابعته تصوير الواقع وشخصياته بأسلوب مباشر؛ كما فيه عودة إلى الجزء الثالث بقصصه التاريخي.

٦ . ١ . ٣ . التفاوت في المستوى الروائي بين أجزاء الخماسية وعلاقته بالواقع

ثمة انطبـــاع يتولد منذ القراءة الأولى للخماسية مفاده أن العمل الفني القائم على الترميز والقدرة على توليد الأحداث من خلال الشخصيـــات والأمكنة والأزمنة والمشـــاهد تراجع مع انتهاء الجزء الأول "التيه" (٢)، ليطغى الجانب البحثي الانثروبولوجي على باقي الرواية، قبل أن يعود فيطل من جديد في بعض فصول الجزء الخـــامس "بادية الظلمات".

وبالرغم من أن عبد الرحمن منيف يقول: "إن الهم الأساسي في هذه الرواية أن تكون في الدرجة الأولى رواية قبل أي شيء آخر. وهذا الهم لم أتخل عنه لحظة واحدة...

وأعتقد أن الرواية المهمة هي التي تستطيع، تحت غلافها المتكامل والمقنع، أن تكون ذات صلة بعلوم أخرى.. إن الأنتروبولوجيا، وغيرها، لم تكن هدفا بذاتها، وإنما أملتها طبيعة الموضوع والمعالجة" (٣)، غيــر أن منيفا يعترف في مكان آخر بأن "التيه" كانت الأقوى وبأنها شكلت الأرضية التي ارتكزت عليها الخماسية وعــالمها: "التيه ربما أقوى. إنها الفرشة. إنهــا الأفق الذي رسمت في إطاره الشخصيات بكل جموحها وغموضها. إنها الصحراء التي بدأت تفقد ملامحها، إنها المدينة المهجنة. إنها مدينة النفط في الصحراء. موكيت أســوجي أو ألماني. مدافئ ومكيفات ومن ثم كيفية تصرف الناس حيالها وردود فعلهم. إنه الشيء الجديد المستغرب وغير المتآلف مع الطبيعة وتقاليد النــاس وعيشهم التقليدي المرتبط بطبيعة معينة... كان شكل الإنسان قبل تدفق الثروة النفطية كالخيزرانة وأصبح الآن كالبرميل. أصبح كبرميل النفط في كرشه ومؤخرته واستدارته. إنه شكل غير متلائم مع الطبيعة" (٤) ...

ويمكن اعتبار التفاوت بين المستويات الفنية للأجزاء انعكاسا للتبدلات في الواقع الذي يتعاطى معه الجزء المعني، ولما يعنيه ذلك من تغير في مناخات الأحداث وحاضناتها.

فالجزء الأول (التيه)، المليء بالرموز، يأتي انطلاقا من واقع الصحراء الطبيعي، واقــع مــا قبل الغزو النفطي وتجلياته الاجتماعية، وفيــه تاليا مزيج مــن الرومانسية الصحراوية و"الأصــالة" البدوية. ويتتابع هذا الجزء مع وقوع الزلزال النفطي وما أحدثه من دمار "اجتماعي" وذهول وانتهاك للحيز المكاني وهجرات جمــاعية وقيام مدن جديدة وأنماط حياة لا عهد لأبناء الصحراء بها من قبل. ويضاف الى ذلك شعور عارم بالهزيمة والإنتظار. كل ذلك، أمن لهذا الجزء مساحات روائية وفنية غنية مليئة بالتناقضات والجدليــات، أو بحسب تعبير منيف، أمن "الفرشة" التي بنيت عليها الرواية بمختلف أجزائها ومناخاتها.

ويركز الجزء الثاني (الأخدود) على عملية وصف مسار التطورات الاجتماعية التي أنتجها النفط، وعلى الشكل الجديد للسلطات التي قامت وممارساتها. ويؤدي هذا الوصف الى نوع من التسطيح في العمل الروائي، بحيث يأخذ شكلا تقريريا ينتفي معه الترميز والتعقيد الفني.

أما في الجزء الثالث (تقاسيم الليل والنهار)، فقد اتكأت الرواية الى فصول قصص تاريخي متفرقة، تشبه التشكل التاريخي المبعثر لما أسماه منيف "المملكة الهديبية"، وهو التشـــكل المنبعث من مجموعة حروب ومساومات ومداخلات أجنبية وترسيمات حدود. ويتخذ هذا الجزء طابع السرد التاريخي المتعدد المشاهد.

وفي الجزء الرابع (المنبت)، نعود من جديد الى أجواء الجزء الثـــاني، حيث الواقع النـــاشئ يستفحل في تشوهاته. وينعكس ذلك على السياق الروائي لهذا الجزء فيخلو من أي ترميز. كما يتشـــابه هذا المناخ السلبي مع الأجواء النفسية القاسية المسيطرة على شخصيات هذا الجزء نتيجة المنفى الجغرافي والنفسي والموت والانتحار.

غير أن تبدلا يطرأ في الجزء الخامس والأخير من الخماسية (بادية الظلمات)، بحيث يحاول منيف أن ينوع في أساليبه مستعيداً أجواء الأجزاء السابقة جميعها، ليواكب بها ما يراه تســـارعا في الأحداث والانقلابات وتوالدا لحالات جديدة من الخوف والانتظار في "سلطنة موران" من ناحية، وليسلط الأضواء، من ناحية ثانية، على خلفية هذه التحولات عبر مشهدية "الفلاش-باك" التي كان قد لجأ إليها طيلة الجزء الثالث...

٦ . ١ . ٤ . عناوين الأجزاء وبداياتها ونهاياتها، ومدلولاتها

ترتدي عناوين الأجزاء أهمية خاصة إذ هي تعكس أيضا مضمون كل جزء لجهة تعبيره عن الإشكالية التي يحاول الجزء طرحها.

"فالتيه" تشير الى الضياع والنزوح والنفي وفقدان الذات، أي أنها تجسد عنوان الأزمة التي عصفت بالمجتمع الصحراوي مع الحدث النفطي. و"الأخدود" تؤكد حجم الهوة السحيقة التي انحفرت بين مرحلتي ما قبل النفط وما بعده، والتي بات يصعب ردمها. أما "تقاسيم الليل والنهار"، فلها دلالة خاصة، إذ فيها شاعرية وموسيقى وحركة صعود وهبوط تمـــاثل تنوع الاحتمالات التي كان يمكن حصولها عند ترسيم الحدود الصحراوية (الرملية) بحيث كانت ترسم في الليل تحت جناح الظلام، ويعلن عنها فتكتشف في النهـــار مع بزوغ الضوء. وفي الجزء الرابع الذي تدور أحداثه في المنفى، يأتي العنوان "المنبت" ليمثل حال الشخصية الرئيسة (الحكيم) المنفية المبتورة الجذور التي بت بأمرها، ولم تعد قادرة على العودة أو الاستقرار في أي مكان نظرا لماضيها وصلاتها ورهاناتها الميتة. ثم تختتم الخماسية "ببادية الظلمات" التي تصور مزيجـــا اجتماعيا وتاريخيا فيه من الظلامية

ومن التناقضات القدر الذي يشبه التناقضات القـــائمة بين البادية (المسكونة شمسا ونورا) والظلمات.

وثمـــة مفارقة تكمن في أن العنوان الأول رمز الى الضياع، والأخير الى الظلام، وكأنها الرحلة النفطية من الضياع الى العتمة الحالكة. على أن بداية كل جزء ونهايته تجسد في حد ذاتها هذه الرحلة.

"فالتيه" تبدأ بمقطع يصف وادي العيون، وكأنه الجنة، وكان ذلك طبعا قبل ظهور النفط فيه (٥):

"إنه وادي العيون... فجأة، وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السمـــاء، فهي تختلف عن كل ما حولها، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر، فيندفع الى التساؤل ثم العجب: كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا؟" (٦) وتختتم بحوار بين شخصيتين تمثلان التمسك بالماضي والتقاليد العائدة الى ما قبل النفط، ويعكس حوارهما الهزيمة التي لحقت بما يمثلان، أي "وادي العيون" (كنموذج حياة):

"قالت خزنة لابن نفاع وهي تربط جرحه من جديد:

- قولك، يا أبو عثمان، إن دم مفضي ما يروح.

رد وهو يضحك:

- دم مفضي، يا خزنة، راح.. راح.

- راح!

- اسألي، يا بنت الحلال، هالحين دم من!

- سالفتنا طويلة يا أبو عثمان؟

- طويلة .. وقصيرة.

- وكل الله يا رجال.. الدنيا صارت بخير.

- ما يندري.

وضحك بحزن وأضاف:

- تفاءلوا بالخير.... لكن لا أحد يعلم بالغيب" (٧)

وفي "الأخدود"، حيث تكرست هزيمة المقاومة للاجتياح النفطي، يفتتح الجزء ويقفل على موران المدينة التي احتلت مكان وادي العيون لتجسـد زمن النفط الجديد. فالمشهد الأول يستهل بفكرة صمت المكان (وبشره بالطبع):

"بدت موران في تلك الأيام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والتأمل، وكأنها لا تنتظر شيئا، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظارا أو بقية من ترقب.."(٨)

أما المشهد الأخير، فيبدو تكثيفا للانتظار، النابع من حوار تمحور حول السجن والمساجين، ليعود من جديد الى انتظار موران، وما تعنيه تلك العودة من انسداد الأفق العام. غير أن صفتين أضيفتا هذه المرة الى الإنتظار، هما السمع والتوقع، وفيهما المزيد من الترقب والتوجس: "واستمرت موران تسمع وتتوقع وتنتظر!" (٩)

وفي "تقاسيم الليل والنهار"، ترتدي العبارات الأولى طابعا خاصا، إذ فيها إشارات الى التاريخ والغربة، والانتظـار أيضا. وقد اختار منيف فيها، وقبل استهلال المشهد الروائي الأول، أن يبدأ باستذكار مثل بدوي، ثم مقطع من مسرحية "الأخوات الثلاث" لتشيخوف، ثم نظرية السببية للرياضيين، تشير جميعها الى أن ثمة علاقة بين التطور التاريخي الذي أفضى الى قيام "المملكة الهديبية"، وبين ما حل بها بعد ظهور النفط:

"ذاك الغيم جاب هذا المطر - مثل بدوي...

يقول أحد أبطال مسرحية تشيخوف "الأخوات الثلاث": لقد آن الأوان! ثمة شيء هائل يتقدّم نحونا، ثمة عاصفة قوية نقية تتهيأ، عاصفة سوف تكنس من مجتمعنا، عما قريب، الكسل واللامبالاة والأوهام والضجر الفاسد. إننا لن نشارك في تلك الحياة، ولكننا نحيا من أجلها اليوم. إننا نعمل ونتألم ونخلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا. إن ما نخاله وهماً قد يكون، في بعض الأحيان، حدسـاً بالممكن، وإنه في رؤية الممكن تكمن احتمالات وقوة المستقبل - أنايسيس نن...

يقول الرياضيون: بما أن ... لذلك ... إذن ..." (١٠)

وأردف منيف هذه الاستشهادات بمقولة تعرّف بمغزى هذا الجزء، وبما فيه من توثيق لما أسماه وهم كتـابة التاريخ، جاء فيها: "وقت الهزائم، وفي المنافي، يطيب الحديث عن التاريخ أو وهم التاريخ" (١١).

أما المشهد الروائي الأول، فيبدأ بما يحدد المرحلة التاريخية التي يصوّرها هذا الجزء الثالث، وما شملته من متغيّرات جغرافية وسياسية وبشرية:

"مطالع القرن، العقود الأولى.
العالم، كل العالم، في ذلك الزمن الرجراج، المليء بالتوقع والاحتمالات، البطيء كسلحفاة، السريع المتغير كبرق السماء، يتلفت، يتساءل، يرهف السمع الى الدوي القادم، ويترقب بخوف الغد الذي سيأتي.
وفي ذلك الزمن كل شيء مطروح لإعادة النظر، لإعادة القسمة: الأفكار، المناطق، الدول، حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار" (١٢).

إذن، يتولّد منذ الصفحات الأولى شعور بحضور التاريخ وعملية كتابته من جديد، وسط حال من الترقب والاضطراب في توقع المستقبل المجهول.
وإذا كان الاستهلال تضمن هذه المسائل، فإن نهاية "تقاسيم الليل والنهار" تفتح أفق المستقبل.

"قال شمران العتيبي، وكان حوله الكثيرون:
– وهذي موران بالها طويل، تحمل وتحبل، لكنها أبد ما تنسى، وما هو بس كذا، ما تستعجل، فإذا كانت اليوم بهذا الشكل، ما أحد يدري شنهو اللي يصير باكر أو اللي عقبه...
وهز رأسه، وأضاف وكأنه يحدّث نفسه:
– والدم، يا جماعة الخير، يجرّ الدم، وتشوفون!" (١٣)

أما في "المنبت"، فإن الأمور تختلف، إذ أن التتابع المكمّل لمآل أحداث الجزء الثاني يبدأ بوصول الطائرة التي كانت تقل السلطان (المخلوع) وحاشيته الى ألمانيا، حيث سيمكثون منفيّين: "هبطت الطائرة في شتوتغارت بعد رحلة طويلة، أطول مما توقّعها السلطان" (١٤) ، أي أن الاستهلال يركّز على التبدّل الجغرافي الذي ستدور الوقائع في هذا الجزء ضمن سقفه.

ولا تخرج نهاية الجزء عن هذا المنحى، بمعنى أنها تشير أيضاً الى استمرار الغربة. غير أنها غربة البداوة عن مجالها الجغرافي وسط تمسّكها ببداوتها الاجتماعية والحياتية (من خلال الخيل المتروكة في الاسطبل الألماني والعلاقة بها): "وأغلقت بوابة القصر، واتجه شايع السحيمي الى الاسطبل، وما إن وصل حتى بدأ يحدّث الخيل، ويبكي." (١٥)

واستخدم منيف حديثاً نبويـــاً ليقدّم به "المنبت" جاء فيه: "... فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى" (١٦)، ليعبّر من خلاله عن تصوّره لمعنى النفي الذي يجسّده المنبت الغريب حيثما حلّ، وكأنه محكوم بالنفي الدائم.

وختاماً، نقف في "بادية الظلمات" على مقدمة وخاتمة تدفعاننا الى استعادة مجمل الأجواء والمناخات التي تجسّدت في أساليب كتابة الأجزاء السابقة. وعبارة "ذاكرة الأمس البعيد" التي اختارها الكاتب استهلالية لهذا الجزء الأخير، تعكس مدى التداخل في مكوّنات الذاكرة التي تلامسها "بادية الظلمات"، بدءاً من نشأة الممالك، الى رسم شخصية السلطان، الى الانقلابات وما رست عليه الأمور بعد التبدّلات العاصفة التي وقعت. و"بـــادية الظلمات" انطلقت من الذاكرة: "الذاكرة... لعنة الإنسان المشتهاة، ولعبته الخطرة، إذ بمقدار ما تتيح له ســـفراً دائماً نحو الحرية، فإنها تصبح سجنه. وفي هذا السفر الدائم بين الحرية والسجن يعيد تشكيل العـــالم" (١٧)، لتصل الى الانتظـــار الذي لا ينتهي: "وبدأت موران تتنصّت وتتلفّت وتترقّب... من جديد." (١٨)

بذلك، عبّرت بدايات الأجزاء ونهايـــاتها عن مسار يكرر نفسه، إذ هو يبدأ بالتذكر وينتهي بالانتظار. على أنه انتظار لا يفضي الى أية ولادة، سوى ولادته نفسها من جديد.

٢٠٦. اللغة والأسلوب

من أبرز عناصر الخماسية التي يجدر التوقف عندها، اللغة المستعملة على امتداد أجزائها والأسلوب الروائي المرافق لهذه اللغة.

فالتنوع اللغوي فيها وتعدّد الأساليب (إن لجهة اعتمـــاد الفصحى أو العامية بلهجاتها المختلفة أو التركيز على الحوارات أو السرد أو الاستشهاد بالأمثال والحكم) يشكّلان أساس صياغتها.

ولعل لغة عبد الرحمن منيف في الخماسية تنبع في الأساس من موقفه من اللغة الروائية، إذ يعتبر أن "اللغة في الرواية مسألة شديدة الحساسية، فهي متعددة، متنوعة، غير مطلقة، وجمالها لا ينبع من الفخامة قدر ما يرتبط بالدقة من ناحية والتوازن الداخلي من ناحية ثانية" (١٩). ويشير منيف في نظرته هذه الى مذهب بلوخين في التعـــاطي مع اللغة الروائية، ومفاده أن: "اللغة الأدبية لا تتقدم في الرواية على أنها اللغة الواحدة الناجزة تماماً، بل تقدّم في تنوّعها الكلامي الحي بالضبط، في عملية تكوينها وتجدّدها" (٢٠).

وعليه، لجأ منيف على امتداد الخماسية الى التنويع في استخداماته اللغوية.

ففي الجزء الأول، "التيه"، توزع الأسلوب اللغوي بين الفصحى في السرد ورواية الأحداث ووصف الأمكنة والبحث في العلاقات الانسانية القائمة أو الناشئة حديثا، واللهجة البدوية في الحوارات الكثيرة التي تدور بين الشخصيات وفي التشبيهات التي تتضمنها. كما عمد، لمزيد من الواقعية، الى اعتماد الأسلوب الأرمني في التعاطي مع العربية حين نحا الى وصف السائق الأرمني آكوب وأقواله وخواطره.

وفي الجزء الثاني، "الأخدود"، تداخلت اللهجات وامتزجت بالفصحى. فالشخصية المحورية في هذا الجزء هي الحكيم المحملجي القادم من الشام حاملا لهجة شامية يستخدمها مع عائلته فيما يحاول تقليد اللهجة البدوية في تحاوره مع أهل البلاد، مما يخلق لهجة جديدة خاصة به. ويضاف الى ذلك اللهجة المصرية التي يحملها سمير قيصر والتي تبرز حين يناجي نفسه أو حين يرافق الحكيم في سهرة أو جلسة حميمة.

وفي الجزء الثالث، "تقاسيم الليل والنهار"، يتغير المناخ اللغوي إذ يختلف مضمون هذا الجزء عن غيره، كونه يمثل انتقالاً زمنياً اعتراضياً الى الماضي.

ويستخدم منيف في هذا الجزء الحوارات بكثافة وهي بكاملها باللهجة البدوية مع إكثار من استخدام الأمثال الشعبية والحكم. كما يستخدم صيغاً مختلفة لرواية كل حدث تاريخي بهدف إظهار نفاق المؤرخين واختلاف رواياتهم بحسب أهوائهم و"مصادر أموالهم" (٢١).

أما في الجزء الرابع، "المنبت"، فإن المزج بين الفصحى واللهجتين البدوية والشامية هو ترجمة لحضور الحكيم (الشامي الأصل) من جديد. ويختلف هذا الجزء عن باقي الأجزاء في كونه يزرع اللغة واللهجات في غير موضعها الجغرافي أو الاجتماعي الطبيعي، الأمر الذي يخلق شعوراً مختلفاً. فأحداث هذا الجزء تدور، كما سبق أن ذكرنا، في المنفى الألماني حيث الطبيعة والأمكنة مختلفة جذرياً عما كانت عليه في الصحراء. لذلك، تصبح اللغة واللهجة البدوية وسيلتين لإعادتنا الى الجو الصحراوي وما يمثله اجتماعياً وثقافياً.

وفي الجزء الخامس، "بادية الظلمات"، لا يشذّ منيف كثيراً عن القواعد اللغوية التي أرساها. غير أنه، وفي اللغة أيضاً، يستعيد مختلف الأساليب اللغوية التي تضمنتها باقي الأجزاء، أي أنه يغوص في التاريخ والسرد والحوارات ويستخدم الحكم وينقل الكلام عن

رواة متعددين ليقدم جوا ملحميا يهدف الى إقفال الخماسية، وفتح نافذة منها على المستقبل الذي لن يختلف، بحسب الخماسية نفسها، عن الماضي والحاضر حيث يتأسس.

ويقول منيف في "الكاتب والمنفى" حين يسأل عن لغته في "مدن الملح": "لقد حاولت الاقتراب من لغة تكون أكثر دقة في التعبير. فأنا ضد استخدام اللهجة العامية من جهة، وضد استخدام اللغة الفصحى المبالغ فيها. كيف يمكن لنا أن نتوصل إذن، في الحوار، الى لهجة تستطيع التعبير عن طبيعة الشخصية الروائية؟ إن اثنين من المثقفين يتناقشان في مشكلة الزمن أو الموت يمكن لهما أن يستعملا كلاما متحذلقا، ويبقى هذا مبررا. ولكن اثنين من البسطاء يتحدثان في أمور يومية، لا نستطيع أن نحملهما كلاما لا يحتملانه في المفردات أو في التركيب وإلا سقطنا في التزوير. علينا أن نصل الى لغة حوار فيها اقتراب من الحياة ومن الناس" (٢٢).

من هذا المنطلق إذن، صاغ عبد الرحمن منيف لغته، فجعلها حقلا لتفاعل شخصياته والأحداث، ونجح الى حد بعيد في مزاوجة العامية بالفصحى وفقا لمقتضى العمل الروائي وتطور مراحله، دون أن يعني ذلك تفردا في النجاح في المزاوجة المذكورة (التي اعتمدها روائيون عرب آخرون).

وعلى صعيد الأسلوب، جمع منيف بين المشاهد بواسطة خيط رفيع، هو خيط الزمن. فالمشاهد بأكثرها تنتمي الى مرحلة تاريخية واحدة، وتدور في حيز مكاني واحد، وتخترق بين الحين والآخر بأسفار زمنية ومكانية نحو الماضي، أو باستطرادات وملاحقات لبعض الشخصيات الى حيث مآلها أو تكوينها الخلقي والمهني (السلطان والحكيم والحاشية في "المنبت" وغزوان في "بادية الظلمات"). ويشبه هذا الأسلوب مناخ الصحراء وواحاتها، حيث كل واحة كيان مستقل ظاهرا، غير أنها جميعا منسابة في علاقة حميمة برمال الصحراء ومطرها وكلئها، يصعب الفصل بينها أو تقسيمها.

وتبرز في الأسلوب أيضا، عناصر تشير الى الانتظار والترقب كعنصرين ماثلين في معظم أرجاء الخماسية، مضافين الى سرد الأخبار وتناقلها شفهيا من راو الى آخر، مع تكرار أفعال الانتظار والتطلع نحو المستقبل، وكنت أشرت سابقا الى أن قفل كل جزء من الخماسية يفتح على مدى للانتظار والترقب والصبر. ويشبه هذا الأسلوب أيضا حياة أهل الصحراء وحياة الناس العاديين العاجزين والصبورين، كما يشبه الصحراء نفسها التي لا تمل الانتظار، انتظار القوافل والأمطار والمفاجآت.

وفي جـــانب آخر، تعبّر صيغ نقل الأخبار والتشافه الدائم بين الشخصيات، وبشكل خاص في نهاية الجزء الخامس من الخمـــاسية عن نمط التأريخ الســـائد عند شخصيات "مدن الملح"، القائم على الاستذكار الشفهي ونقل الأخبار: "قال الذين عاشوا في تلك الفترة، إن الدنيا بدأت تصغر وتضيق حتى أصبحت كحبة خردل. وقالوا: الأغنياء يزدادون غنى والفقراء فقراً. وقالوا: اختلطت الأمور، واختلّت المقاييس، فلا أحد يعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ، ما يجب أن يفعله، وما يجب أن يجتـــنبه. وفي أواخر الليل، ما بين الفجر الكاذب والفجر الصادق، كانت تكسر أبواب البيوت، ويدخل رجـــال بسحنات القرود، وبأيديهم أسلحة، ويأخذون الرجال والفتية، وما يمكن حمله ويذهبون. قال المسنون: آخر الزمان. وقالت النسوة: لا بد أن يأتي المهدي، ومعه الخضر..." (٢٣). وعليه، يصبح التـــاريخ مجموعة أخبار منسوبة الى أجيال من الرواة تتناقلها الألسن وتحرّفها، وقد يعود بعضها الى منجمين وعرّافين (على نحو ما تم في الجزء الأول، "التيه"، مع نجمة المثقـــال، عرّافة "وادي العيون" التي لخّصت تاريخ الوادي ومآله) (٢٤).

مسألة أخرى في الاسلوب ينبغي أن نشير إليها، هي مسألة اللجوء الى كم هائل من الأمثال والأقوال والعبارات الشعبية الممتلئة سخرية وظرفاً، وبشكل خاص في الجزء الأخير، مثل الاســـتشهاد بأبيات من الشعر القديم ومقاطع من رسائل الجاحظ وابن قتيبة الدينوري: "كتب على بعض أبواب المدن بالمسند: احفظ رأسك، وقالوا: مقتل المرء بين فكيه، وقال بهرام: وسمع في الليل صوت طائر فتحداه بسهم وهو لا يراه، إلا أنه تتبّع الصوت فصرعه، فلما صار بين يديه قال: والطير أيضاً لو سكت كان خيراً له... ما شيء أحق بطول سجن من لســـان" (٢٥). وقد أراد منيف من خلال هذه المقتبسات أن يقول ما هو أبلغ من الكلام "السياسي" المباشر من ناحية، وأن يطبع الحوارات بالعفوية التراثية والانتماء اللغوي والبيئي من ناحية ثانية.

لقد استطاعت "مدن الملح" أن تنسج بلغتها وأسلوبها حكايا ووقائع وصياغات جديدة للأحداث، فخلقت وثيقة غنية بتنوع مناخاتها إن لجهة المضمون أو لجهة الشكل.

٣٠٦ . مساحتا الخماسية الزمانية والمكانية

لا توجد في "مدن الملح" أي تواريخ، كما لا توجد أية تســـميات حقيقية للأمكنة.

غير أن الشـــعور المتولّد من صفحاتها يشي بالتواريخ وما حوته، وبالجغرافيا وتلاوينها، وسأوجز ذلك في الفقرتين التاليتين.

٦.٣.١.٠ الزمان

تقع أحداث الجزء الأول في أواخر العقد الثاني من القرن الحـــالي، وتكمل أحداث باقي الأجزاء العقود اللاحقة الى يوم أنجـــاز الكاتب نصه، أي الى منتصف الثمانينات. ويستثنى من السياق المذكور الجزء الثالث الذي يعود بالذاكرة الى مطالع القرن حين تأسست الممالك في الجزيرة العربية وانرسمت حدودها ليقول من خلال عودته إن "ذاك الغيم جاب هذا المطر". كما يمكن استثناء الجزء الخامس حيث الأزمنة تتداخل نتيجة العودة بين الحين والآخر الى الماضيين البعيد والقريب، والى الروايات المختلفة حول مجريات الأمور.

وبالرغم من تغييب التواريخ والأحداث المبـــاشرة، فإن الإشارات الى الحربين العالميّتين وما بينهما من حروب محلية وصعود القوة الأميركية مقـــابل أفول عظمة الأمبراطورية البريطانية جلية (في الجزء الثالث على نحو خاص)، كما أن الإشارات الى صراع المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي والغليان في المنطقة العربية وثورة اليمن وما تلاها من نزاعات يمنية سعودية واضحة أيضاً (في الجزء الخامس تحديداً).

وإذا كان هذا التغييب المقصود يهدف الى الهروب من التحديد التاريخي الصارم، فهو يهدف أيضاً الى إبقاء الأسئـــلة وعمليات التأويل ممكنة، خاصة وأن منيفاً يلجأ في الكثير من الأحيان الى ألســـنة المؤرخين التي تروي الأحداث بأشكال مختلفة ومتناقضة أحياناً. وهو يتطلع من وراء ذلك الى تدعيم جهده في كتابة تاريخين مضاد وموازٍ للتاريخ "الرسمي" الذي كتبه آل سعود (وسأعرض لهذه المسألة لاحقاً). ولعل اختيار منيف الدائم لحضور مؤرخ يرافق السلطان في أكثر أنشطته يؤكد حرصه على مســـاءلة الروايات التاريخية التي روّجها واعتمدها مؤرخو السلاطين في الكتب والبرامج وسعيه لدحضها.

ويقول منيف في "الكاتب والمنفى" رداً على سؤال حول فهمه للزمن الروائي: "الرواية يجب أن يبدأ تأثيرها على القارئ من نهـــايتها. أو بمعنى آخر: على الرواية أن تبدأ في التفاعل في ذهن قارئها حالما ينتهي من قراءتها، وأن تشغله الى أن يصل الى

القلق والتعب، وبالتالي يعيد تركيب وفهم ما يراه حوله... إن الزمن في الروايات ماضٍ ربما، ولكن انعكاساته وتأثيراته موجودة ومستمرة... ومفهوم الزمن للكاتب الروائي قد يكون مختلفاً عن زمن الناس الآخرين. الماضي ليس ما وقع من قبل فقط، إنه ما يملك فعالية مستمرة، ما يزال في حالة كينونة، موجود ويتفاعل في ما حوله"(٢٦).

بذلك، يصبح زمن "مدن الملح" مفتاحاً لفهمها وتأويل تاريخيتها وعنصراً ضرورياً لإشغال القارئ بأحداثها.

٦٠٣٠٢٠ *المكان*

ما من شك أن المكان في الخماسية ركن أساس بنيت عليه أكثر جدلياتها الإنسانية. فالمكان كان رحم الولادة النفطية ومساحة الحنين والانتظار والهزيمة. وقد برز المكان في عنوان الخماسية (مدن الملح) وفي عناوين الأجزاء جميعاً (التيه والأخدود وتقاسيم الليل والنهار والمنبت وبادية الظلمات)، دلالة على الأهمية القصوى التي يحتلها المكان في وجدان الكاتب.

كما أن المكان "افتتح" الخماسية، إذ أطلّ "وادي العيون" في "التيه" منذ البداية بوصفه مكاناً خاصاً ينبض حياة وسط الصحراء: " إنه وادي العيون.. فجأة وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء..." (٢٧). ويمثل هذا الاستهلال للخماسية تأكيداً على فرادة الموقع-المكان (وادي العيون) حيث سيجري الحدث الأول (التنقيب عن النفط) الذي أسس لباقي الأحداث دون استثناء، وللخماسية نفسها. ويستنتج من وصف ذلك المكان شدة ارتباط الكاتب به حنيناً واكتشافاً وتخيّلاً وأسى على المآل الذي سينتهي إليه بعد بضع صفحات تلخص بضعة أسابيع. لقد كان وادي العيون جنة، وبات الخروج منه وضياعه خروجاً من الجنة (٢٨). غير أن هذا الخروج يفتح في نفس الوقت الأفق على المكان الأرحب: الصحراء بمواقعها وأطلالها وما تثيره من حنين الى البكارة التي انفضت مع خراب وادي العيون.

وصحراوية المكان تطبعه بعناصر عدة: من اللاتناهي الى الحدود الوهمية، ومن الرمال الى الملح، ومن البداوة والترحال الى البحث الدائم عن ملاذ وذاكرة. ويصبح هذا

المكان هوية لا تبدّلها حركة الليل والنهار. وأكثر من ذلك، يصبح حالة ترافق الشخصيات أينما حلوا.

وثمة ما أغرى الكاتب حتماً في علاقته بالصحراء، مساحة عمله. فهي تتيح له إعادة رسمها وتكوينها من جديد. ومنيف عبّر عن ذلك بقوله: "نحتّ أسماء أماكن، وصنعت جغرافيا للمنطقة أنا الذي رسـمتها. أنا لا أكتب رواية تاريخية، ولا أكتب رواية وقائعية بالمعنى المبتذل، ولكنني أحاول أن أرى عصري كله: كيف تكوّن، وما هي أبرز المعالم والتضاريس في هذه المرحلة..." (٢٩)

ولعل عملية رسم الصحراء وإعـادة تكوينها ووضع الحدود بين رمالها التي صاغها منيف تحـاكي الى حد بعيد ما صوّره في الجزء الثالث، "تقاسيم الليل والنهار"، من ترسيم لممالك الصحراء وتقاسم للأرض وفق خرائط ومسارات حروب. ويجدر بنا القول إن عبد الرحمن منيف حـاول من وراء تملّك القدرة على صناعة الجغرافيا ورسم الأمـاكن الثأر من التاريخ والجغرافيا. فهو، في تاريخه المعتمد على امتداد عمله وفي جغرافيته المخلوقة من جديد، ينقلب على المآلين التـاريخي والجغرافي للجزيرة العربية. وانقلابه هو انقلاب حنين وغضب: حنين الى مرحلة أفلت (هي مرحلة وادي العيون)، وغضب من ضياع فرص كان يمكن أن تغيّر مسار الأمور لو تحقّقت (محاولات متعب ومفضي وابن نفاع وشمران والعمال المقاومة).

وعلى صعيد آخر، تطابق المكان والشخصيات، وبخاصة شخصيات الحنين الى "وادي العيون"، أي شـخصيات الوادي عينه، ومتعب الهذال منهم على نحو خاص. فقد جمع منيف بين أرض وادي العيـون وآل العتوم الذين ينتمي إليهم متعب، وهم فقراء يضجون كرامة وعنفواناً (٣٠). فكان مصير الأرض هو مصيرهم، تغيّروا سوية: "كيف يمكن للأشـخاص والأماكن أن يتغيروا الى الدرجة التي يفقدون صلتهم بما كانوا عليه، وهل يستطيع الإنسان أن يتكيف مع الأشياء الجديدة أو الأماكن الجديدة دون أن يفقد جزءاً من ذاته؟ " (٣١). ثم تاهوا سوية، إذ التهمت الجرافات وآلات التنقيب عن النفط واديهم، وشردتهم وقطعت أوصالهم ومات كثر منهم خلال الرحيل. ومنذ ذلك الحين، تغيّرت علاقة الرواية بالمكان. فبعد اسـتقرار قصير في مكان واحد هو الوادي، بدأ توالي الأمكنة المرافق للنزوح أو التـيه، أو المرافق لتطوّرات الحدث النفطي، وبات توالي هذه الأمكنة يحاكي حياة الصحراء إذ يشبه الترحال وحياة البداوة من ناحية، وسرعة تطوّر

الأحداث والمشـــاهد وتعدد الشخصيات من ناحية ثانية. وتحولت الصحراء شكلا من أشـــكال الحياة يحاصر البشر ارتضوا ذلك أم لم يرتضوه.

لقد طاردت الصحراء بعض أبنائها حتى في أوروبا حيث عاشوا المنفى والغربة، فبقيت تسكنهم، وظلوا يتفاعلون مع المكان وكأنه الصحراء، إذ نصبوا خيما للحراس داخل قصرهم ووضعوا الأحصنة في اســطبل بجوارها. كما تصرفوا في مساحتهم الجديدة وكأنهم ما زالوا في بواديهم. وقد عبر عن ذلك بيان بلدية "بادن بادن" في ألمانيا المعترض على ممارســـات سكان القصر بقوله: "يمنع بصورة قاطعة ذبح أية حيوانات في القصر. يمنع إيقاد النار. يمنع الجلوس في الشارع. يعاقب على الضجيج وإقلاق الراحة، كما يعاقب على التلصص وإزعاج الجوار" (٣٢).

الى ذلك، ثمة ملاحظة خاصة بالقضية المكانية مفادها أن أسمـــاء المواقع والممالك، كما التواريخ، هي أسماء متخيلة على امتداد الرواية بالرغم من إمكان ربط كل منها بحيز ما. وتستثنى من هذه الملاحظة الأماكن الواقعة خارج الجزيرة العربية، أي في سوريا ولبنان (حيث منشـــأ الحكيم وعائلته وبعض الوافدين) ومصر (حيث منشأ سمير) وإنكلترا (حيث تدرب فنر) وألمانيا (حيث منفى السلطان خزعل) وسويسرا (حيث عاش الحكيم بعد رحيله) والولايات المتحدة (حيث تدرب حماد ودرس غزوان وعمل). وبالعودة الى المواقع، يمكن اعتبار "وادي العيون" واحة جميلة في الجزيرة العربية أصابها الزلزال النفطي، فاستحالت أسطورة للحنين الى مرحلة ما قبل ذلك الزلزال. أما حران، فهي الظهران أو باقي المدن المطلة على البحر في المملكة العربية السعودية. والاســـتخلاص الأخير، مرده تسمية منيف للدولة التي يصفها "المملكة الهديبية" نسبة لآل هديب (عائلة السلطان خريبط)، وهي في ذلك تمثل المملكة السعودية (المنسوبة لآل سعود). كما أن العوالي التي شكل الاســـتيلاء عليها من قبل خريبط مقدمة لإعلان المملكة الهديبية هي الحجاز التي شكلت سيطرة عبد العزيز بن سعود عليها تأسيسا للمملكة السعودية. أما موران، فهي تســـمية لمدينة قامت كدلالة على الدولة الجديدة (قد تكون الرياض)، ثم أصبحت تسمية للدولة نفسها. في حين أن "الدواحس" ترمز الى اليمن الشمالي إذ وقعت فيها ثورة أطاحت الحاكم (الثورة الجمهورية على الإمام بدر بن أحمد) عام ١٩٦٢ واشتعلت إثرها الحرب مع الســـعودية.

وبذلك، يكون التحديد المكاني الإسمي المباشر قد غاب، تاركاً التأويل يبيّن مدى حضوره ومدى ارتباطه بالتوثيق التاريخي الذي تحويه "مدن الملح".

٦.٠٤ بناء الشخصيات والواقع التاريخي

أول ما يجدر قوله قبل مباشرة قضية بنـــاء شخصيـــات "مدن الملح" وتمثيليتها التاريخية هو أن هذه الشخصيات لم تكن صاحبة دور البطولة الرئيسة في الخماسية، أي أنها لم تشكل عنصر السيادة الروائي، رغم تجسيدها في مواقفها وعلاقاتها كل ما أراد منيف التوثيق له اجتماعياً.

فالصحراء هي البطل الحقيقي. إذ علاوة على احتلالها المكان والزمان، فهي تحتل موقع القلب في علاقات الشخصيات بعضها ببعضها الآخر وبالقضايا المحيطة بها. وقد كان لبطولة الصحراء (وهي بطولة "مهزومة" في جميع الأحوال) الأثر الأساس في تكوين الشخصيات وبلورة مواقفها وأفعالها. ولا يشارك الصحراء في هذا الموقع البطولي إلا النفط الذي غيّر من وجهها ومعالمها وقاطنيها.

وقد أشار منيف نفسه الى غياب البطل-الإنسان عن الرواية حين قال: " مدن الملح رواية ليس فيها بطل... كل قضية ولها بطلها، ولكن الصحراء تبقى هنا هي البطل الأساسي. طبيعة الحياة الموجودة، والتغيرات والتطورات التي تأتي هي التي تشـــكّل الشخصية الرئيسية بمعنى ما. قد يكون متعب الهذال بطلاً لفترة ما. ثم يختفي ليسلم الراية لآخرين. الحياة تتدفق مثل تيار لخلق مدن جديدة وعلاقات جديدة.... إن متعب الهذال نفســه يبقى موجوداً كنغم داخلي، كحلم، أو كاحتمـــال، لا بد له من الفعل، من المقاومة، كي يصحح الأمور، كي يمنحها مجرى آخر. ولكن عمله هذا يبقى حلماً"(٣٣).

و"مدن الملح" بهذا المعنى رواية أماكن وأشياء وبشر وعلاقات متغيرة. وبشرها ناس من لحم ودم يتألمون ويفرحون ويتواصلون من خلال المكان والزمان. كما أنها تشبه بشخصياتها الشعبية سباق التتابع.

فمتعب الهذال، ضمير "وادي العيون"، لم يعد لاســـتمراره في هذا السباق مسوّغ وجود بعد زوال الوادي، وبعد أن عبّر عن رفضه باحتجاج صحراوي لا يجدي إزاء التطورات التي ملأت الصحراء بدويها ورعدها. وقد أكملت وضحة زوجته مساره بصمتها الى أن أسلمت الروح، فكان دور مفضي الجدعـــان، الذي حاول التصدي بعمل

ما (ممارسة الطب الشعبي وتحدي الضرب والسجن)، غير أنه انتهى الى المآل نفسه لانتمائه الى العقلية والعصر نفسهما. وهنا أطل شمران العتيبي ليكمل السباق، ولكن بأسلوب آخر، أسلوب فيه "سياسة" وشتائم وأنشطة واستفزاز؛ والأهم من ذلك أن فيه تربية لأولاد وإعداد لهم لمرحلة جديدة، ولمستقبل قادم.

ويلخص منيف مراحل "سباق التتابع" هذا وتبادل الأدوار بين الشخصيات التي حاولت المواجهة بقوله: "متعب الهذال بطل العصر الماضي. لقد انتهى ويجب أن ينتهي.. إن البطولة الحقيقية هي أن يكون الإنسان ابن عصره، ابن البيئة والشروط التاريخية التي يولد فيها. وبمقدار ما يحاول متعب الهذال أن يكون بطلا بطريقته وحسب منطقه، فإن شخصية أخرى موازية تظهر في الأخدود وهي شخصية شمران العتيبي الذي يمثل ماضيا لكن فيه شيئا من ملامح المستقبل..." (٣٤)

وقد عبر منيف عن تصوره لأدوار الشخصيات "المواجهة" ولمصائرها بأشكال مختلفة في الأسلوب وفي الأحداث المحيطة بها. فهو غلف متعب وزوجته ومفضي (شخصيات الجزء الأول الرافضة) برمزية افتقدها شمران (شخصية المقاومة في باقي الأجزاء، الى حين انبعاث الرمزية من حوله في آخر الجزء الخامس). غير أن هذه الرمزية لم تكن لتظهر إلا لحظة انتهاء الشخصية نفسها، أي هزيمتها وموتها. فمتعب أحاطت به الرموز حين اختفى، وبات يظهر بين الفينة والأخرى على ناقة مسرعا أو محاطا باليمام الأبيض، أو وسط طوفانات المياه. والمثير أن أحدا لم يكن يلحظ وجوده غير ابنه فواز (الذي كان قد شاهده قبل اختفائه بحالة من القهر والفشل). فمتعب "ضمير مكان" استثنائي ومرحلة غابرة، وفعله الانكفائي لم يستحل عملا عاما. وزوجته وضحة صمتت بعد اختفائه، وقادت بصمت مطبق مسيرة النزوح-التيه من الوادي، فكانت في صمتها استمرارا لاختفاء متعب وانتظارا لعودته المؤجلة ولاستعادة صوتها وكلماتها. أما مفضي، فمع بدء مسيرته نحو الهزيمة والموت، بات خارق القوة والقدرة، يعالج عشرات الحالات المستعصية، ثم أحدث بعد موته رعشة أصابت أهل مدينته جميعا فجعلتهم يبكون ويختفون ويرون البحر مضطربا والغزال مرعوبا والحمام منتشرا فوق الرؤوس.

بذلك، تكون الرموز التي أحاطت بنهاية متعب ومفضي متشابهة إذ هي مست الحيز المائي (البحر والسيل) والكائنات القائمة في جواره الحيوي (الغزال واليمام والحمام)، ثم مست العامة (خاصة في حالة مفضي).

وحده شـــمران كان شخصية رسمت على نحو تقريري مباشر في مختلف معالمها، الى حين اغتيال فنر واضطراب أوجه الحياة جميعا في موران. عندئذ أخرج بندقيته على نحو غير متوقع وأطلق النار بغزارة، وحلقت فوقه إثر ذلك رفوف من اليمام، واكتسب بذلك بعدا رمزيا.

بهذا المعنى تتكرر من جديد الرموز عينها، وتشكل جميعا صور انعتاق وطيران وحرية من ناحية، ومناخا من الهزيمة أو الاستسلام للواقع أو الهروب منه نحو البطولة الرمزية والتحول أسطورة من ناحية ثانية.

ويمكن القول أيضا إن الشخصيات التي ظهرت في الجزء الأول من الخماسية "التيه" اختصرت أنماط الناس الذين سيظهرون في الأجزاء الأخرى وأشكال علاقاتهم وارتباطهم بمكانهم وأشيائهم والأحداث التي عصفت بهم. فمتعب ومفضي وأم الخوش على اختـــلافهم مثلوا النزعة الصحراوية المليئة انتظارا وغيظا ومحاولة للرفض، والأميركيون في شخصيتهم الجماعية وطقوسهم واجتياحهم العاصف كانوا حاضرين في نفس المشهد، وابن الراشد وجوهر كســـمسارين صغيرين يسعيان الى شيء من الربح والجاه ويسعدان بما يقترحه الأميركيون عليهما يمثلان أيضا النمط الجديد من العلاقات التي ستترسخ في ما بعد، والتي ستجسدها في الأجزاء اللاحقة شخصيات عدة وإن بأسلوب مختلف. كما أن الأمير خالدا، الذي اختل توازنه النفسي والعقلي نتيجة عدم قدرته على استيعاب حجم التبدلات التي طرأت وكمها وما حملته من منتجات ومفاجآت، قدم صورة عما سيتبعه من أمراء وســـلاطين (باستثناء فنر). الى ذلك، فإن ظهور الحكيم صبحي المحملجي في نهاية هذا الجزء بأسلوبه في التعاطي مع الناس ومع الســـلطة (الأمير)، مهد أيضا لما سيقوم به فيما بعد من أدوار استشارية وطبية ومالية واجتماعية.

وتؤكد هذه الإحاطة بالشخصيات-الأنماط في "التيه" مرة جديدة الغنى الاستثنائي للجزء الأول من الخماسية حيث طرحت جميع الإشكاليات والجدليات وانفتحت مختلف المناخات والآفاق الروائية التي ستتبلور لاحقا في باقي الأجزاء.

وعلى صعيد عملية تكوين الشخصيات، نقف على جهد كبير بذله الكاتب لتتبع التفاصيل الدقيقة الخاصة بحياة كل منها، كما عمد الى توأمة بعضها. فابن نفاع وصالح الرشدان، والمؤرخ والصحافي، ودحام وجوهر، وسعيد ورضائي، وحتى متعب ومفضي، توائم لجهة تشابهها الى حد التوحد. غير أنه تشابه في المواقف والقيم أكثر منه تشـــابه

في الأبعاد الفنية التي تعتمد في رسم الشخصية (الأبعاد الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية) .

وليؤكد منيف منحاه في خلق شخصيات واقعية، تعاطى بكثير من الحيادية مع تطور أكثر الشخصيات وأوضاعها السيكولوجية، وبشكل خاص شخصيات ابن الراشد والسلطان خزعل والحكيم المحملجي، مما أعطى دفعا إضافيا للشعور بأن الشخصيات حقيقية.

يبقى أن الأسماء المنتقاة للشـــخصيات، كمتْل متعب الهذال ومفضي الجدعان وابن نفاع والحكيم صبحي المحملجي وغزوان ومطيع وســـعيد ورضائي وسمير وصالح الرشدان وشمران العتيبي، تحمـــل جميعها معاني تشبه الى حد ما شـــخصيات حامليها.

وعلى مستوى آخر، شكلت شـــخصيات "مدن الملح" عامة المدخل الذي اعتمده منيف لصياغة ما سأسميه "بالتاريخين المضاد والموازي" وأعرض له في الخلاصة. فمن خلال الشخصيات الشعبية الرافضة لمسار الأمور والمتألمة منها (متعب ومفضي وشمران) نسج الكاتب خيوط تاريخه المضاد، ومن خلال شخصية المستشار الحكيم (صبحي المحملجي)، الذي لعب دور العين الراصدة لمجريات الأحداث من داخل القصور ومواقع الســـلطة، بنى تاريخه الموازي.

وقد لعبت الشـــخصيات المحورية في الرواية دورها الروائي من جهة ودورها السياسي الذي أراده لها منيف من جهة ثانية. كما أنها جسدت سير أشخاص حقيقيين لعبوا أدوارا هامة في صناعة تاريخ الجزيرة العربية عامة والمملكة العربية السعودية خاصة.

فالسلطان خريبط آل هديب الذي احتل بعض مناطق الجزيرة العربية وأقام السلطنة "الهديبية" هو صورة للملك عبد العزيز آل سعود الذي أنشأ المملكة "السعودية".

وهاملتون الانكليزي الذي دعي بالصاحب في الرواية معتنقا الإسلام وكان مستشار السلطان خريبط ومبعوث الانكليز هو تمثل لشخصية السير سنجن فيلبي الذي وفد الجزيرة بعد الحرب العـــالمية الأولى، ولعب دورا استثنائيا في نصح الملك عبد العزيز ورسم سيـــاساته على ضوء المواقف البريطانية. وهو أيضا اعتنق الإسلام وأسمى نفسه عبد الله.

والسلطان خزعل وريث خريبط الذي لم يدم حكمه طويلا، هو تمثيل للملك سعود بن عبد العزيز الذي حكم بين العامين ١٩٥٣ و١٩٦٤ قبل أن يعزل من منصبه.

وخلفه في الخماسية السلطان فنر، الذي تميز عن أخوته بالثقافة والحكمة والدهاء ثم مات اغتيالا، هو نفسه الملك فيصل الذي استلم بعد شقيقه سعود عام ١٩٦٤ واغتيل عام ١٩٧٤. وهو شن الحرب (غير المعلنة) على جمهورية اليمن الشمالي، كما شن فنر الحرب على الدواحس حيث وقعت الثورة في الخماسية.

أما الحكيم صبحي المحملجي القادم من بلاد الشام والملازم للسلطان خزعل مستشارا وصانعا الثروة، فهو نسخة عن الطبيب السوري رشاد فرعون الذي وفد المملكة السعودية مطالع الخمسينات ولعب دورا استثنائيا في تحديد شكل بنيتها الداخلية.

من كل ذلك، نستخلص أن العمل الفني في الخماسية تداخل في أكثر المواضع مع التوثيق الاجتماعي التاريخي. فالمكان معروف، والزمان محدد، وأبرز الشخصيات التي مثلت السلطة النفطية والوافدين الى الجزيرة العربية للعمل معها تجسد شخصيات لعبت أدوارا تاريخية.

لذلك، يمكن القول إن التعبير الروائي الفني كان غنيا بالرموز عند رسم الشخصيات الشعبية (المضادة)، في حين أنه أتى مباشرا فجا في واقعيته عند التعامل مع الشخصيات الرسمية (الدائرة في فلك السلطة).

وختاما، أقفل هذا الفصل بالقول إن التفاوت الواضح بين أجزاء الخماسية في المستوى الفني لا ينسحب على مضمونها التوثيقي الثابت الذي أحاط بأكثر تفاصيل ما جرى في الجزيرة العربية منذ مطالع القرن العشرين.

الفصل السابع

خلاصة

بعدما استعرضت في فصول هذا البحث مواقف الشخصيات ومواقعها التي اختصرت مضمون "مدن الملح" وعبرت عن قضاياها، وبعد أن عملت على تبيان دور العناصر الفنية في تكوين هذه الخماسية، سأحاول في هذه الخلاصة التوكيد عل كل ما شكل توثيقا للواقع الاجتماعي التاريخي الذي تعاطفت معه "مدن الملح" أو عادته.

إتكأت خماسية "مدن الملح" في بنائها الى مكانها والى الحدث التاريخي الذي انبثق منه. أما في جهدها التوثيقي، فقد استندت الخماسية الى سيرة شخصياتها التي اضطلعت بدور العبارة التاريخية الرابطة على الدوام المكان بالحدث. وهي بذلك جسدت الواقع الاجتماعي.

وباستثناء شخصية الحكيم كرابط للأجزاء الخمسة وصلة وصل في ما بينها، وشخصية متعب كرمز للرفض والتيه، وشخصية شمران كمقاوم حي وحيد، فإن الأوجه الفنية للعمل لم تتجل في رسم الشخصيات بمقدار تجليها في عناصر الخماسية اللغوية والأسلوبية وفي قضيتي المكان والزمان.

ويمكن القول بشكل عام أن الخماسية انقسمت الى قسمين:

- الأول، ويتكون من الجزء الأول، "التيه"، يتداخل فيه التوثيق الاجتماعي والتاريخي للحدث بالعمل الفني والخيال الروائي. فيقدم هذا التداخل شكلا من أشكال الرواية التاريخية بحسب التعريف اللوكاشي: "إن ما يهم في الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث. وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بأولئك الناس الى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا في الواقع التاريخي" (١). "فالتيه" تعاطى مع قوم الصحراء عامة وما أصابهم، فصور الجدليات الاجتماعية والإنسانية التي عاشها هؤلاء القوم نتيجة ما جرى لهم.

- الثاني، ويتكون من باقي الأجزاء، يتتبع مسار عدد من الشخصيات المتولدة مواقفها وعلاقاتها من بسط المكان والحدث سيطرتهما على فضاء الرواية. وتتبعث من

هذا القســم على نحو أوضح الإشارات التاريخية والاجتماعية التي أراد عبد الرحمن منيف إطلاقها تعبيرا عن قناعاته السياسية والانسانية.

وقد تأسس على التقسيم المذكور مفهومان متناقضان للتأريخ البديل والتوثيق الاجتماعي اللذين شاءهما منيف هدفا رئيسيا لخماسيته.

ففي المفهوم الأول، تعارض الخماسية السيرة التاريخية "الرسمية"، أي تلك التي تكتبها السلطات. وهي تورد في سياقها نماذج عن كيفية كتابة هذه السيرة الرســمية: قال السلطان خريبط لمؤرخ السلطنة يونس شاهين "أكتب، فكتب" (٢)، وقال السلطان فنر لمؤرخ السلطنة وسيد صحافتها يونس شاهين: "أريدك أن تكتب أن موران أكبر من موران"، فكتب أيضا(٣). ولإنتاج البديل، تنسج "مدن الملح" تاريخا مضادا، تاريخا للناس الذين عانوا وانهزموا وترفض تغييبهم ومحو أمكنتهم.

أما في المفهوم الثاني، فإن "مدن الملح" تكتب مقابل التاريخ الممجد السلطة تاريخا يبحث في بشاعاتها. إنه التاريخ الموازي. تاريخ السلطة يرويها من ليس فيها أو مواليا لها.

وفي هذين المفهومين، يتبلور فهم سوسيولوجي لما جرى يمكن أن يتأسس عليه تأريخ جديد ومن ثم رواية لهذا التأريخ.

في ما يلي، محاولة لعرض مفهومي التاريخ المضاد والتاريخ الموازي إنطلاقا مما ذكرته آنفا.

٠١٠٧ التاريخ المضاد

يجسد الجزء الأول من الخماسية "التيه" مفهوم التــاريخ المضاد، أو المقلوب، إذ يكتب هذا التــاريخ بلغة الناس ولسانهم. يغوص في المشاعر والأعماق الإنسانية، ويصور أحوال المجتمع الذي اجتاحه اكتشاف النفط، ويؤرخ من خلال الرواية للصحراء وأبنائها وما أصابهم. ولعل في قول عبد الرحمن منيف حول فهمه لدور الرواية ما يؤكد هذه الفكرة، إذ يقول إن: "الرواية ستكون المرآة والسجل، سجل الأفكار والأحلام وضباب الأمل... وهي سوف تقول بأســاليب عديدة، أي عصر عشنا فيه، وأية مصاعب واجهنا، وأية تحديات انتصر فيها رجال ونساء... ستكون تاريخ الذين لا تاريخ لهم، تاريخ الفقراء والمسحوقين، والذين يحلمون بعالم أفضل. ستكون حافلة بأسماء الذين لا أسماء كبيرة أو

لامعة لهم، وسوف تقول كيف عاشوا وكيف مـــاتوا وهم يحلمون. وسوف تتكلم الرواية أيضا، وبجرأة، عن الطغاة والذين باعوا أوطانهم وشعوبهم... ولا بد أن تقرأ الأجيال القادمة التاريخ الذي نعيشه الآن وغدا ليس من كتب التاريخ المصقولة، وإنما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة" (٤).

٢٠٧. التاريخ الموازي

على عكس الجزء الأول، تؤرخ الأجزاء الأربعة الباقية من الخماسية ("الأخدود" و"تقاســيم الليل والنهار" و"المنبت" و"بادية الظلمات") للسلطة وما أصابها من تبدلات في الحقبة نفسها. وهي بذلك تكتب تاريخا موازيا، تاريخا يصور ما ترويه السلطة نفسها بعدسة مختلفة:

"سأل الحكيم: أخشى، يا صاحب الجلالة، أن لجنة الاستشارة الاقتصادية في القصر، وبعد ما من اللـــه سبحانه وتعالى بالمال، لا تقدر أهمية المال، ولا تعرف كيف يجب أن ينفق، لأن كثيرا مـــن المشاريع التي تمت الموافقة عليها أخيرا بدأ الناس يتكلمون حولها: من تعهدها؟ بكم؟ وهل هي ضرورية أم لا!...

أجاب السلطان: ... إذا النـــاس اشتغلت، ولعبت بالفلوس تنسى كل شيء، وهذا اللي حنا نريده. خل الناس تركض وتتعب، حتى إذا جاء الليل مثل الحجارة انسدحت وغفت!"(٥).

وبذلك، تؤدي الأجزاء الأربعة هذه إحدى مهام الرواية كما يراها منيف، وهي دخول الأماكن المحرمة أو الخطرة، أي أماكن السلطة، لمعرفة حقيقة ما يجري داخلها(٦).

"مدن الملح" روت حكايا وخلقت أناسا ورســمت أمكنة وفتحت أزمنة واعتمدت أطرا لغوية، أي أنها كونت فضاء أدبيا روائيا. لكنها أيضا تتبعت واقعا اجتماعيا تاريخيا ملموسا، وعبرت عن موقف سيـــاسي واضح يحمل الأبعاد الثقافية لالتزام كاتبها الشخصي.

فقناعة منيف بضرورة ولوج بـــاب البحث في ما جرى على مدى الصحراء في الجزيرة العربية منذ الثورة النفطية هي التي دفعته الى تكوين عالم يريد أن يرصد مختلف خلاياه ويعيد تركيبها محـــاولا في الوقت نفسه المحافظة على قلمه كقلم فنان روائي خلاق من دون التحول داعية سياسيا أو واعظا أخلاقيا.

وهو تعاطى مع موضوع لم يطرق، روائيا، قبله محاكيا عبره ذاكرة أمكنة وناس وأحداث.

"مدن الملح" رواية ملتزمة تدعو الى البحث والتساؤل. إنها وثيقة أدبية تتبعت أدق التفاصيل التي يمكن أن تغني التحليل الاجتماعي الخاص بجدليات ما بعد النفط.
وهي أيضا ســـجل لمدن يمكن في أي لحظة أن تذوب...

الهوامش

الفصل الأول

١. اعتمدت في عرضي لسيرة منيف على المصادر التالية:
- ما نشر حول حياته ومؤلفاته في المحور الخاص به في مجلة "الجديد"، العدد الثاني عشر- شتاء ١٩٩٦،
- المقابلة التي أجريتها معه ونشرت في عدد "ملحق النهار" الصادر يوم السبت في ٣٠ أيار ١٩٩٨، وما دار على هامشها من أحاديث،
- ما أفادني به اثنان من أصدقائه اللبنانيين.

٢. ملحق النهار، مقابلة مع عبد الرحمن منيف، السبت في ٣٠ أيار ١٩٩٨.
٣. المصدر السابق.

الفصل الثاني

١. منيف، مدن الملح، التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤، ص٥٥٢
٢. المصدر السابق، ص٢٠٦
٣. المصدر السابق، ص١٧٦
٤. المصدر السابق، ص٤٧٣
٥. المصدر السابق، ص٢٨١
٦. المصدر السابق، ص٥٦١
٧. المصدر السابق، ص٥٧٠
٨. منيف، عبد الرحمن، مدن الملح، الأخدود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥، ص١٨٤
٩. منيف، مدن الملح، التيه، ص١٥٨
١٠. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص٥٥٢

١١. منيف، مدن الملح، التيه، ص٧
١٢. المصدر السابق، ص١٦
١٣. المصدر السابق، ص٣٣ و ٣٤
١٤. المصدر السابق، ص٣٨
١٥. المصدر السابق، ص٦٩
١٦. المصدر السابق، ص٧٦ و ٧٧
١٧. المصدر السابق، ص٩٧
١٨. المصدر السابق، ص٩٩
١٩. المصدر السابق، ص١٠٥
٢٠. المصدر السابق، ص١٠٦
٢١. المصدر السابق، ص١٢٨
٢٢. المصدر السابق، ص١٠٨
٢٣. المصدر السابق، ص١٣٥
٢٤. المصدر السابق، ص١٤٠
٢٥. المصدر السابق، ص١٤٦
٢٦. المصدر السابق، ص٣٥٨
٢٧. المصدر السابق، ص٣٧٦
٢٨. المصدر السابق، ص٣٧٦
٢٩. المصدر السابق، ص٥٤٧
٣٠. المصدر السابق، ص٥٧١
٣١. المصدر السابق، ص٥٧٢
٣٢. المصدر السابق، ص٢٦٩
٣٣. المصدر السابق، ص٣٤٥
٣٤. المصدر السابق، ص٣٤٦
٣٥. المصدر السابق، ص٣٧١
٣٦. المصدر السابق، ص٥٠١
٣٧. المصدر السابق، ص٥٣٤

٣٨. المصدر السابق، ص٥٧٠
٣٩. المصدر السابق، ص٥٨٢
٤٠. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص١٨٤
٤١. منيف، مدن الملح، التيه، ص٥٠٨
٤٢. المصدر السابق، ص٥١٣
٤٣. المصدر السابق، ص٥١٦
٤٤. المصدر السابق، ص٥٢٤
٤٥. المصدر السابق، ص٥٣١
٤٦. المصدر السابق، ص٥٣٤
٤٧. نفس المصدر والصفحة
٤٨. المصدر السابق، ص٥٣٧
٤٩. المصدر السابق، ص٥٧٢
٥٠. المصدر السابق، ص٥٧٤
٥١. المصدر السابق، ص٥٨٢
٥٢. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص١٨
٥٣. المصدر السابق، ص٣٥٧
٥٤. المصدر السابق، ص٣٥٨
٥٥. المصدر السابق، ص٣٦٨
٥٦. المصدر السابق، ص٣٨٠
٥٧. المصدر السابق، ص٣٩٣
٥٨. المصدر السابق، ص٥٣٧
٥٩. المصدر السابق، ص٦١١
٦٠. المصدر السابق، ص٦١٥
٦١. منيف، عبد الرحمن، مدن الملح، بادية الظلمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٩، ص٧٨
٦٢. المصدر السابق، ص٥٤١
٦٣. المصدر السابق، ص٥٨٠

٦٤. منيف، مدن الملح، التيه، ص٣٦
٦٥. المصدر السابق، ص١٧١
٦٦. المصدر السابق، ص٣٤٣
٦٧. المصدر السابق، ص٣٥٢
٦٨. المصدر السابق، ص٥١٨
٦٩. المصدر السابق، ص٥٤١
٧٠. المصدر السابق، ص٥٥٦
٧١. نفس المصدر، ص٢٨٢
٧٢. المصدر السابق، ص٣٦٥
٧٣. المصدر السابق، ص٣٧٧
٧٤. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٧٨
٧٥. المصدر السابق، ص٤٥٩
٧٦. منيف، مدن الملح، التيه، ص٥٨٠
٧٧. المصدر السابق، ص٥٨٢
٧٨. منيف، عبد الرحمن، مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٩، ص١٥٩ و١٦٠
٧٩. المصدر السابق، ص٢٣١
٨٠. منيف، مدن الملح، التيه، ص٥٠٣
٨١. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص٦٠٥
٨٢. منيف، عبد الرحمن، مدن الملح، المنبت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٩، ص٢٥٨
٨٣. منيف، مدن الملح، الاخدود، ص٥٠٧

الفصل الثالث

١. منيف، مدن الملح، التيه، ص٤٠١
٢. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص١٠٧
٣. المصدر السابق، ص١٠٨

٤. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٥٦٣

٥. منيف، مدن المح، الأخدود، ص٢٧٢

٦. المصدر السابق، ٤٢١

٧. المصدر السابق، ص٤٢٤

٨. المصدر السابق، ص٢٣٧

٩. المصدر السابق، ص٣٨٥

١٠. المصدر السابق، ص٣٨٥

١١. المصدر السابق، ص٥٣٠

١٢. منيف، مدن الملح، المنبت، ص٧٧

١٣. المصدر السابق، ص١٢٠

١٤. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٤٦٢

١٥. المصدر السابق، ص٥٢٦

١٦. المصدر السابق، ص٥٥٩

١٧. المصدر السابق، ص٥٧٥

١٨. منيف، مدن الملح، التيه، ص٤٨٧

١٩. المصدر السابق، ص٥٠٥

٢٠. المصدر السابق، ص٥٠١

٢١. المصدر السابق، ص٥٠٥

٢٢. المصدر السابق، ص٥٢١

٢٣. المصدر السابق، ص٥٣٨

٢٤. المصدر السابق، ص٥٢٧

٢٥. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص٩

٢٦. النابلسي، شاكر، مدار الصحراء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩١، ص٢١٦

٢٧. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص١٩

٢٨. المصدر السابق، ص٢٣٥

٢٩. المصدر السابق، ص٢٣٦

٣٠. المصدر السابق، ص٢٣٨
٣١. المصدر السابق، ص٢٤٠
٣٢. المصدر السابق، ص٢٥٧
٣٣. المصدر السابق، ص٥٠٩
٣٤. منيف، مدن الملح، المنبت، ص٩٣
٣٥. المصدر السابق، ص١٦٧
٣٦. المصدر السابق، ص١٢٨
٣٧. المصدر السابق، ص١٢٣

الفصل الرابع

١. منيف، مدن الملح، التيه، ص٢٢٨
٢. المصدر السابق، ص٢٣٦
٣. المصدر السابق، ص٣٧٣
٤. المصدر السابق، ص٤٣٨
٥. المصدر السابق، ص٤٣٠
٦. المصدر السابق، ص٤٥٥
٧. المصدر السابق، ص٤٥٦
٨. المصدر السابق، ص٤٥٩
٩. المصدر السابق، ص٤٧٠
١٠. المصدر السابق، ص٤٧١
١١. المصدر السابق، ص٤٧١
١٢. منيف، مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، ص٦١
١٣. المصدر السابق، ص٦٤
١٤. المصدر السابق، ص٦٩
١٥. المصدر السابق، ص٧٠
١٦. المصدر السابق، ص١١٩
١٧. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٢٢٠

١٨. المصدر السابق، ص٢٢٠
١٩. منيف، مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، ص٣٥٦
٢٠. منيف، مدن الملح، التيه، ص٢٧٦
٢١. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص٢٣٤
٢٢. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٥٥٧
٢٣. ملحق النهار، المقابلة مع منيف

الفصل الخامس

١. منيف، مدن الملح، التيه، ص١٧٢
٢. راجع صفحة ١٣ من هذا البحث
٣. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٦و٧
٤. المصدر السابق، ص١٣
٥. المصدر السابق، ص٥٢٠
٦. المصدر السابق، ص٣٣٢
٧. المصدر السابق، ص٣٢٧
٨. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص١٣٣و١٣٤
٩. المصدر السابق، ص٤٣٦
١٠. المصدر السابق، ص٥٤٢
١١. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٢٣٩
١٢. المصدر السابق، ص٥٧٣

الفصل السادس

١. منيف، عبد الرحمن، الكاتب والمنفى، تحرير محمد دكروب، دار الفكر الجديد، بيروت ١٩٩٢، ص٢٤٨
٢. راجع آغا، صالح سعيد، الرمز التوراتي في الجزء الأول من خماسية "مدن الملح"، "التيه" لعبد الرحمن منيف، المنشورة في مجلة "الأبحاث" الصادرة عن كلية الآداب والعلوم في الجامعة الأميركية في بيروت، السنة ٤٢، ١٩٩٤

٣. منيف، الكاتب والمنفى، ص٢٤١
٤. المصدر السابق، ص٢١٠
٥. راجع آغا، الرمز التوراتي
٦. منيف، مدن الملح، التيه، ص٧
٧. المصدر السابق، ص٥٨٢
٨. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص٥
٩. المصدر السابق، ص٦١٩
١٠. منيف، مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، ص٥
١١. المصدر السابق، ص٧
١٢. المصدر السابق، ص٩
١٣. المصدر السابق، ص٤٠٢
١٤. منيف، مدن الملح، المنبت، ص٧
١٥. المصدر السابق، ص٢٥٨
١٦. المصدر السابق، ص٥
١٧. منيف، مدن المح، بادية الظللمات، ص٦
١٨. المصدر السابق، ص٥٨٤
١٩. منيف، الكاتب والمنفى، ص٨٢
٢٠. بلوخين، الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص٢٤١
٢١. منيف، مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، ص١٥٠
٢٢. منيف، الكاتب والمنفى، ص١٥٥
٢٣. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٥٧٠
٢٤. منيف، مدن الملح، التيه، ص١٥٧
٢٥. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٣٧١
٢٦. منيف، الكاتب والمنفى، ص١٧٥
٢٧. منيف، مدن الملح، التيه، ص٧
٢٨. آغا، الرمز التوراتي، ص٨٣

٢٩. منيف، الكاتب والمنفى، ص١٦٨
٣٠. منيف، مدن الملح، التيه، ص١٤
٣١. المصدر السابق، ص١٣٠
٣٢. منيف، مدن الملح، المنبت، ص٦٦
٣٣. المصدر السابق، ص١٥٦
٣٤. المصدر السابق، ص٢٢٣

الفصل السابع

١. لوكاش، الرواية التـــاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، الجمهورية العراقية،
٢. وزارة الثقافة والفنون ١٩٨٧، ص٤٦
٣. منيف، مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، ص١٤٧
٤. منيف، مدن الملح، بادية الظلمات، ص٣٣
٥. منيف، الكاتب والمنفى، ص٤٣
٦. منيف، مدن الملح، الأخدود، ص٤٧٤
٧. ملحق النهار، المقابلة مع منيف

ببليوغرافيا

الأصول

منيف، عبد الرحمن، مدن *الملح*، *التيه*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤.

منيف، عبد الرحمن، مدن *الملح*، *الأخدود*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥.

منيف، عبد الرحمن، مدن *الملح*، *تقاسيم الليل والنهار*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٩.

منيف، عبد الرحمن، مدن *الملح*، *المنبت*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٩.

منيف، عبد الرحمن، مدن *الملح*، *بادية الظلمات*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٩.

المراجع

أ. الكتب

بلوخين، ميخائيل، *الكلمة في الرواية*، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨.

لوكاش، جورج، *الرواية التاريخية*، ترجمة صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨.

منيف، عبد الرحمن، *الكاتب والمنفى*، تحرير محمد دكروب، دار الفكر الجديد، بيروت ١٩٩٢.

النابلسي، شاكر، *مدار الصحراء*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩١.

ب. الدوريات

الجديد، العدد الثاني عشر– شتاء ١٩٩٦، محور خاص بعبد الرحمن منيف.

ملحق النهار، العدد ٣٢٦، السبت في ٣٠ أيار ١٩٩٨، مقابلة مع عبد الرحمن منيف.

ج. الدراسات

آغا، صالح سعيد، *الرمز التوراتي في الجزء الأول من خماسية "مدن الملح"، "التيه" لعبد الرحمن منيف*، مجلة الأبحاث الصادرة عن كلية الآداب والعلوم، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٩٤.

مراجع إضافية

أ. الكتب

بروكلمان، كارل، *تاريخ الشعوب الإسلامية*، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، بيروت ١٩٧٩.

العيد، يمنى، *الراوي: الموقع والشكل*، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٦.

منيف، عبد الرحمن، *الأشجار واغتيال مرزوق*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣.

منيف، عبد الرحمن، *قصة حب مجوسية*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٤.

منيف، عبد الرحمن، *شرق المتوسط*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٥.

منيف، عبد الرحمن، *البترول العربي: مشاركة أو التأميم*، بيروت ١٩٧٥.

منيف، عبد الرحمن، *حين تركنا الجسر*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٦.

منيف، عبد الرحمن، *تأميم البترول العربي*، بغداد ١٩٧٦.

منيف، عبد الرحمن، *النهايات*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧.

منيف، عبد الرحمن، *سباق المسافات الطويلة*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩.

منيف، عبد الرحمن، بالإشتراك مع جبرا ابراهيم جبرا، *عالم بلا خرائط*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢.

منيف، عبد الرحمن، *الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩١.

منيف، عبد الرحمن، *الديمقراطية أولا.. الديمقراطية دائما*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٢.

منيف، عبد الرحمن، سيرة *مدينة، عمان في الأربعينات*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٤.

منيف، عبد الرحمن، *مروان قصاب باشي، رحلة الحياة والفن*، دمشق ١٩٩٦.

منيف، عبد الرحمن، *عروة الزمان الباهي، مهدى الى الباهي* محمد، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٧.

منيف، عبد الرحمن، *لوعة الغياب*، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٨.

منيف، عبد الرحمن، *بين الثقافة والسياسة*، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٨.

ب. الدوريات

الآداب، العدد الثامن والتاسع، آب ١٩٩٤، مقابلة مع عبد الرحمن منيف.

الطريق، العدد الثالث/الرابع – آب ١٩٨١، عدد خاص بالرواية العربية.

المدى، العدد ١٥/١، ١٩٩٧، ملف حول الرواية والتاريخ.

ج. الدراسات

خوري، الياس، *الرواية في العالم الثالث*، محاضرة ألقيت في جامعة كولومبيا، نيسان ١٩٩٦.

د. المراجع الأجنبية

1. *Nation and Narration*, edited by Hobi Bhabha. Routledge, London and New York, 1990.

2. *Writings across Words*, edited by Russel King, John Connel, Paul White. Routledge. London and New York, 1995.